حوار في المعمار الكونـي

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
البعثات التعليمية بين السلب والايجاب
حوار في المعمار الكوني
خرافة الاسرة أم خرافة الفكرة ؟
سخف الفلسفة الوضعية
العقدة السوداء
غياب البديل
رايت الاسلام ولم ار مسلمين
لعبة نقل المتاعب
شيء من الفكر الوضعي
دعوة الى مد الحياة
موقف ازاء الانسان : مقارنة في السلوك الحضاري
حين يتساقط الوضعيون
حول الاجتهاد : الضرورات والحوافز ووسائل التحقيق

البعثات التعليمية بين السلب والايجاب

– ١ –

متوالية هندسية .. اليس كذلك ؟!

الاثنان يصبحان اربعة والاربعة ثمانية وهذه تغدو ست عشرة .. حتى ياتي اليوم الذي سنجد بلادنا ترسل فيه للخارج جيوشا من الطلبة المبتعثين لاستكمال دراستهم في العالم المتقدم .. وقد جاء هذا اليوم فعلا منذ العقود الاولى للقرن العشرين.

فاذا كان عدد كبير من هؤلاء يعودون وفي ايديهم معاول الهدم لا ادوات البناء فان لنا ان نتصور حجم الكارثة وفداحة الخطب !!.

وكان الامر قد بدا هينا محدودا يوم اخذت مصر منذ الحملة الفرنسية وعصر محمد علي الذي اعقبها – فيما سمي خطأ ببدء النهضة الحديثة – ترسل بعثاتها العلمية الى اوروبا لكي تتخصص هناك .. وكان توجه تلك البعثات ينصب – بالدرجة الاولى – على حقول العلوم النظرية والتطبيقية ، اما العلوم الانسانية فلم تلق توجها واسع النطاق يومها ولكن وبمرور الوقت اخذت سيول الطلبة تتدفق على مؤسسات هذه العلوم كذلك ، حيث لم يكن في بلادنا ما يغطي الحاجة من كليات ومعاهد الاداب والتربية والادارة والاقتصاد والقانون والسياسة .. الى اخره ..

وفرق كبير بين ان يعود المبتعث وقد تخصص في الطب او الجراحة او الهندسة او الفيزياء او الكيمياء والرياضيات وعلوم حياة .. وبين ان يعود متخصصا في الاداب او الفنون او التاريخ او الاجتماع او الاقتصاد والقانون والسياسة ..

ذلك ان الاخذ عن مدنية الغرب قد يخرج علماء حقيقيين يخدمون امتهم رغم ما يتعرض له الكثيرون منهم من محاولات التخريب التي قد تعيدهم الى اهليهم ، لا لكي يبنوا ويعمروا وانما ليخربوا ويدمروا ..

ومع ذلك فان المخاطر هاهنا اقل بكثير منها في الحقل الاخر ..

الثقافة .. فهاهنا سيجد الطالب المبتعث نفسه يتلقى فلسفة الغرب المادية والعلمانية ، وعقيدته ورؤيته للعالم والحياة والانسان ، ويتشبع فكره ، وهو يدرس التاريخ او النقد الادبي او المذاهب الفلسفية او الاجتماع او القانون والسياسة ، بالرؤية الغربية التي قد تمسخ شخصيته مسخا وتعيده الينا مبشرا يلبس اردية الكهنوت الجامعي .. وكلنا يعلم الدور التخريبي الذي يمارسه المبشرون أياً كانوا والذي يتحرك في تضاد تام مع اهداف امتنا وضروراتها البنائية الملحة ..

ان قضية الابتعاث ترتبط ارتباطا وثيقا بالمجرى العام لمسالة صراع الحضارات ، وكيف ان الحضارات الاقوى هي التي تطوي في جناحيها الحضارات الاقل تحصنا ومناعة والاكثر افتقادا لعناصر شخصيتها المستقلة وكيانها المتميز ... وقد تحدث كثير من المؤرخين والفلاسفة عن صيرورة هذا الصراع ونتائجه المحتومة ، وكان ابرزهم ولا ريب المؤرخ البريطاني الشهير (ارنولد توينبي) الذي حدثنا في مؤلفه (دراسة للتاريخ) عن الحضارات السبع المتبقية من بين بضع وعشرين حضارة طواها التاريخ ..

وان الحضارة الاسلامية هي واحدة من هذه السبع ، وان ستة منها – بما فيها الحضارة الاسلامية – مهددة بالفناء في تيار الحضارة الغربية الاقوى والاكثر فاعلية ..

وسواء صح هذا الذي يقوله توينبي ام لا .. فان ما نراه ونلمسه في واقع تاريخنا الحضاري المعاصر يشير الى تفكك جوانب عديدة في شخصيتنا الحضارية وذوبانها ، والى ضياع الكثير من ملامحنا المتميزة ، وطغيان قيم الغرب وفلسفته ورؤيته على الكثير الكثير من قيمنا وعقائدنا ورؤانا ..

وما من شك في ان الابتعاث كان واحدا من اشد الوسائل تاثيرا في هذا المصير الذي سيقودنا ، ان لم نتوقف في الوقت المناسب لمراجعة حساباتنا ، سيقودنا الى الانتحار الكامل والفناء النهائي في كيان الحضارة الغربية .. ويومها لن يكون هناك شيء اسمه (حضارة اسلامية).

والمسألة – كما سنرى – ليست لغزا محيرا ، ومعضلة لا حل لها ، بل هي واضحة بينة بمجرد ان يتوفر حسن النية والوعي والاخلاص وفك الارتباط المخزي بالتوجيه الغربي من خلال صنائعه المنبثة في كوادرنا التربوية والتعليمية والتي يسعى الغرب من خلالها الى وضعنا في الحلقة المفرغة التي ليس للخروج منها سبيل.

وها هي بعض أمم وشعوب العالم الثالث كاليابان والصين على سبيل المثال ، قدرت باخلاصها لثقافتها القومية وشخصيتها الحضارية ان تجتاز المحنة بسلام وان تعيد صياغة المعادلة لصالحها لا لصالح الخصوم والاعداء .. انها عرفت كيف تقتبس من الغرب عناصر تفوقه العلمي النظري (البحت) والتطبيقي (التقني) مع الحفاظ في الوقت نفسه على ملامحها الثقافية المتفردة وفلسفتها وتميزها .. انها كانت تبعث بطلبتها لا لكي ياتوها متخصصين في التاريخ او الادب او الفلسفة او الاقتصاد .. قدر ما كانت تبعث بهم لكي يرجعوا اليها مهندسين ورياضيين واطباء .. وهي فضلا عن هذا ، كانت تعرف كيف تختار مبعوثيها الى الغرب ، وكيف تراقب سلوكهم واتصالاتهم ، وكيف تعزل وتسترجع وتقطع المدد عن اولئك الذين خرجوا

عن الخط المرسوم وارتموا في احضان هذه العشيقة او تلك ، وهذا النادي او ذاك .. وزلت اقدامهم باتجاه مصيدة ما من المصائد العديدة المنصوبة بحذق لاستضافة الزائرين.

ان برمجة علاقتنا بالحضارة الغربية امر محتوم اذا ما اردنا مواصلة البقاء كامة لها اسمها وهويتها وجواز سفرها الى العالم .. وهذه البرمجة تتطلب عملا واسعا في اكثر من ميدان، ورؤية شاملة لكل المساحات التي تمتد اليها هذه العلاقة الخطيرة .. وما من شك في ان قضية الابتعاث هي واحدة من اهم هذه المساحات ..

– ٢ –

ومعضلة الابتعاث ترتبط – فضلا عن دائرة الصراع الحضاري الشامل – بالهجوم الاستعماري القديم والجديد الذي شنه الغرب ولا يزال على بلدان العالم الثالث والاسلامي على وجه الخصوص .. ترتبط بالاستعمار وبخاصة الجديد منه فيما يعرف بالامبريالية ، من حيث انه يعتمد الغزو الفكري كواحد من اكثر اسلحته مضاء في تحقيق اهدافه ..

واذا كان المبشرون في الماضي هم طلائع الاستعمار القديم فان العديد من المبتعثين هم طلائع الاستعمار الجديد .. انها لفرصة ممتازة تجدها مؤسسات هذا الاستعمار ومراكز توجيهه الرئيسية في هذا النفر القادم من الشرق لكي يتلقى علوم الغرب وفلسفاته وعقائده ورؤيته للحياة ، تستخدم معه لكسب هذا النفر وتحويله الى اداة طيعة لتحقيق اهدافها ، كافة الاساليب والوسائل المشروعة وغير المشروعة ، التي تبيحها الاخلاق والتي لا تبيحها على الاطلاق .. فالاغراءات كثيرة ، والتهديدات والضغوط كثيرة هي الاخرى ، ووسائل التاثير النفسي والفكري والاخلاقي تزداد فاعلية يوما بعد يوم .. وقليلون هم اولئك الذين يفلتون من الحصار ، والكثرة الكاثرة تعود وهي تحمل في دمائها جراثيم الداء .. بعضها يحس به فيرجع محموما يريد ان يدمر كل شيء يقف في طريق قناعاته الجديدة ، وبعضها الاخر لا يحس به بشكل مباشر ، لكنه كجراثيم الملاريا ، يعمل فيه ببطء ، ثم ما تلبث الشجرة الخبيثة ان تخرج نكدها المرير ..

ان الجندي الاستعماري الذي يتجول في شوارع المدن المقهورة ، حاملا سلاحه ، موجها حربته الى صدور المواطنين .. الجندي الذي كان يتجمع ورفاقه في الثكنات الكبيرة في قلب المدن الاسلامية ، يأكل الطعام الطيب ، ويتنزه في الحدائق المنسقة ، ويمارس هواياته المفضلة وهو مطمئن الى ان سلاحه سيحميه ويبقيه .. هذا الجندي قد انتهى دوره بزوال الاستعمار القديم .. استعمار الجيوش والعساكر للارض الاسلامية .. وحل محله اليوم في موجة الاستعمار الجديد جندي من نوع اخر .. انه واحد من ابناء الشرق انفسهم .. مواطن مسلم .. لا يلبس ((الخاكي)) ولا يحمل سلاحا .. ولكن فكره معبأ تماما بالمتفجرات التي زرعها فيه الاستعمار الجديد يوم كان يدرس هناك ، وهي مستعدة للإنفجار في اية لحظة يضغط فيها على الزر لكي

تدمر القيم والاعراف والمعتقدات ، وتقطع الاصول والجذور ، وتاتي على الاخضر واليابس ، وتفتح الطريق امام مصالح الغرب الاستراتيجية والاقتصادية ، بعد ازاحة كافة الاسلاك الشائكة التي تقف في طريقها .. وهل اقدر من عقائد الامم والشعوب على منع تسلل الغرباء الى بيوت الناس وعقولهم وارواحهم ؟!؟.

ان عددا ليس بالقليل من المبتعثين العائدين من ديار الغرب هم هؤلاء الجنود الجدد .. ادوات رخيصة بايدي مراكز التوجيه الفكري لحساب الاستعمار الجديد .. لا نقول هذا من قبيل الاحكام المتعسفة والتعميمات التي لا رصيد لها والمبالغات التي لا تملك اي غطاء .. ولكننا نقوله لانه هو الواقع المنظور والملموس ولان خلافه هو الباطل والظن والهوى .. ويكفي ان نقوم ببعض الاحصائيات الاولية في جامعاتنا وفي اجنحتها الانسانية على وجه الخصوص ، لكي ما نلبث ان نتبين صحة هذه المقولة وصدقها المقنع.

كلنا ارتطم ايام دراسته الجامعية ، او تدريسه الجامعي ، اذا اتيح له ان يصل الى هناك، ارتطم بواحد او اكثر من هؤلاء الجنود الجدد .. ادوات الامبريالية ومطاياها ، وعندما نقول الامبريالية يتوجب علينا الا نفرق بين غربيها وشرقيها .. صليبيها وماركسيها .. امريكيها وروسيها ، فكلها – في الواقع – امبريالية تسعى من خلال الغزو الفكري الى توظيف جغرافية العالم لمصالحها واهدافها ..

كل واحد منا ارتطم بواحد او اكثر من هؤلاء .. لا بل ان في تجربة كل واحد منا مؤشرا يكاد يكون ثابتا على ارقام متقاربة يتراوح بينها باستمرار لا ينقص او يزيد الا قليلا ، وهذا المؤشر يقول بان سبعة او ثمانية من كل عشرة من المتخصصين العائدين يمارسون الدور التخريبي نفسه ، من خلال طرائق عمل تكاد تكون متشابهة ومتفقا عليها للوصول الى نتائج – اغلب الظن – انها قد رسمت سلفا !!.

– ٣ –

والانبعاث يرتبط أيضاً بالصهيونية.

فاذا كانت هذه الحركة العنصرية المتمذهبة تقتصر على اليهود ، فلا يسارعن احد بالقول بان لا لها بابتعاث او مبتعثين .. ذلك ان لها اجنحة وواجهات تمكنها من الانفتاح على العالم كله .. ابناء العالم كله ، لكسبهم وتوظيفهم لخدمة الاهداف والمصالح الصهيونية ..

ان الماسونية التي تخاطب (الانسان) في العالم كله ، بعيدا عن دينه وامته ووطنه وشخصيته الحضارية واصوله التاريخية ، هي واحدة من هذه الاجنحة او الواجهات .. ومحاولة اثبات او تأكيد العلاقة (الوظيفية) بين الصهيونية والماسونية هي كمحاولة او تاكيد ان ١+١ يساوي اثنين !!.

والاجدى من هذا هو محاولة تبين طبيعة الدور الذي تلعبه الماسونية وطرائقه واساليبه، وقد كتب في هذا الكثير .. ويكفي ان نتابع معطيات الماسونية عبر هذا الذي كتب عنها ونقارنها ببروتوكولات حكماء صهيون لكي ما نلبث ان نتبين مدى التناغم في الطرائق والاساليب ومن ثم في الاهداف التي تصب فيها هذه وتلك.

ان (الغيتو) اليهودي المقفل على بني اسرائيل والذي تمكنوا بواسطته من حماية عقائدهم وقسماتهم الحضارية كاقلية دينية تضطرب في بحر الشعوب والامم التي كانت تعيش بين جنبيها .. (الغيتو) المنقفل باكثر مما يجب ، كان يوازيه في الجهة المقابلة تلك الواجهات المنفتحة باكثر مما يجب .. هناك (اليهودي) وحده ، وهنا (الانسان) ايا كان لونه وشكله ودينه وقوميته والارض التي ينتمي اليها .. ولكن اي انسان هذا الذي تريد الماسونية (الانسانية) ان تكسبه الى صفوفها ؟

انه مجرد انسان .. لا اسم له ولا هوية ولا شخصية .. تخدعه اغراءات الشمولية والاخاء والوحدة العالمية .. الى اخره .. فيتخلى عن ملامحه وخصوصيته ويقع في التعميمات التي يغدو معها مجرد رقم مضاف الى الارقام .. وما يلبث حكماء صهيون ان يجيئوا لكي يصنعوا من هذه الارقام الكميات الرياضية التي تزيد من رصيدهم في العالم ، ولا شيء وراء ذلك .. وعندما يكتشف بعض هؤلاء المخدوعين الحقيقة المحزنة ويحاولون ان يؤوبوا الى انفسهم .. يسترجعوا انفسهم – بالاحرى – من خلال العودة الى دينهم ورؤيتهم وملامحهم .. توصد في طريقهم الابواب .. وهنالك في السراديب الكهنوتية يلقنون الدرس الذي يعلمهم كيف ان عليهم ألا يفكروا ثانية في العودة الى ذواتهم لانهم اصبحوا في عصر الرقيق الجديد في ملكية السادة الجدد !!.

واذا كان عدد ليس بالقليل من كبار مثقفينا وعلمائنا قد خدعتهم اللعبة فانساقوا اليها طائعين .. افنستغرب على انصاف المثقفين وارباعهم ممن زج بهم عن طريق الابتعاث في قلب المجتمعات التي تنشط فيها الماسونية ، انتماءهم ، هرولة وركضا ، الى هذه المنظمة العالمية التي تعدهم بما هو اكثر تاثيرا وسحرا : المال والنساء والمناصب !! .. باشباع نزواتهم وشهواتهم حيثما تطلب الامر اشباعا ؟!

وكثيرون هم اولئك العائدون من الخارج الذين وجدوا الطريق امامهم مفتوحا فصعدوا على حين غفلة الى اعلى المناصب ، واتخمت جيوبهم – فجاة – بالمال .. وكثيرة هي القوائم التي كشف عنها النقاب ، لهذا السبب او ذاك ، فاذا بمعظم افرادها الماسونيين هم من اولئك الذين كانوا قد بعث بهم يوما الى بلاد العالم المتقدم لكي يعودوا الى بلادهم فيرتقوا بها صعدا من

خلال خبراتهم وتخصصهم .. فاذا بهم يسعون للانتكاس بها وتوظيفها من اجل مصالح واهداف الخصوم والاعداء.

وغير الماسونية ، واجهات واجنحة اخرى تعمل في خدمة بني اسرائيل ، خذوا مثلا النوادي الليلية .. ان المال والنساء اليهوديين يعرفان كيف يحيلانها الى مصائد ذات فاعلية كبيرة في جر ارجل الكثير من المبتعثين الى الغرب .. وبعد ان تجر الارجل ، وما اسهل ان تجر .. تفرغ الافكار وتجري هناك عمليات غسل ليس للجيوب فحسب ، ولكن للعقول ايضا ..

ففي حماة الرقص والموسيقى او الخمر والميسر والزنا والشذوذ .. لا يمكن لعاقل الا ان يفقد عقله .. ولحليم الا ان يغدو حيرانا !! .

– ٤ –

والشيوعية هي الاخرى تسعى الى توظيف عملية الابتعاث لتحقيق اهدافها ومصالحها في بلدان العالم الثالث .. وتبلغ بها الصراحة في هذه المحاولة حدا دفع بعض الدول النامية الى رفض ارسال اي واحد من مبتعثيها الى هناك ، او على الاقل عدم الاعتراف بشهاداتهم العليا ..

ان الجامعات الشيوعية تعتمد من المناهج والبرامج والدروس والمفردات ما يستهدف تحويل افواج المبتعثين الى الشيوعية ومنحهم القناعات الكافية بانتمائهم الجديد واعادتهم الى بلادهم ، رتلا خامسا او سابعا بشكل ادق ، اذا اعتبرنا عملاء الامبريالية والصهيونية هم الأرقام الخامسة والسادسة التي نكبت بها بلادنا !! وان الامر ليبلغ بتلك الجامعات حد النشاط الدعائي المكشوف الذي يتجاوز كافة الاعراف والتقاليد الاكاديمية المحترمة .. والذين يرفضون التجاوب مع هذه النبرة الدعائية يحاصرون ويمتحنون ولا يحظون بالهدف الذي جاؤوا يبتغونه .. التخصص الجاد في الفرع الذي ارسلوا ليتابعوا دراساتهم فيه ..

ويعود هؤلاء المبتعثون في عالم الماركسية الى بلادهم وهم يحملون ثلاث خطيئات : .. علما ناقصا .. وعمالة مرذولة .. واندفاعا محموما لتدمير وابادة كل ما يعطي امتهم ملامحها المتميزة .. ووطنهم شخصيته المستقلة .. من اجل ان يخرجوا بها من الاصالة الى التبعية ، ومن الخصوصية الى العمومية ، ومن النوعية الى الكمية .. حيث توظف على طريق المطامع الروسية الجديدة التي خلعت رداءها القيصري الاستعماري القديم ولبست بدلا عنه رداء ماركسيا جديدا رات انه اكثر قدرة على مد الارض الروسية الى افاق ابعد ، وصولا الى المياه الدافئة التي كان يحلم بها اسكندر ونيقولا !!

سعى القياصرة الى تحقيق الهدف بالايدي الروسية فقطعوا نصف الطريق .. وجاء حكام روسية الجدد لكي يواصلوا المسيرة معتمدين هذه المرة على الاميين انفسهم !! ابناء الشعوب المنكودة ..

واعرف استاذا جامعيا حصل على شهادته العليا في التاريخ الاسلامي من جامعة احدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي ، على يد استاذ اذربيجاني ماركسي الملامح والقسمات .. وعاد الاستاذ الى بلده لكي ينشر اطروحته التي امليت عليه هناك .. (البابكية انتفاضة الشعب الاذربيجاني ضد الخلافة العباسية) ..

ويقرأ الناس اطروحته من ألفها الى يائها ، فلا يجدون فيها الا هجوما متواصلا محموما ضد كل ما هو عربي مسلم والا دفاعا عن كل حركة شعوبية كانت تريد شرا بالعرب والمسلمين..

ان هذا الاستاذ هو واحد من عشرات غيره جاؤوا بعد رحلة الابتعاث البائسة لكي يكتبوا بايد غير ايديهم ، ويتكلموا بالسنة غير السنتهم .. ويهتفوا – اذا اقتضى الامر – بحناجر غير حناجرهم !!.

– ٥ –

اذا تكلمنا بحساب الموازين التجارية لكي نقرب المسالة الى الاذهان فاننا نستطيع القول بان الميزان ليس لصالح المبتعثين الى العالم المتقدم .. وما اكثر الاسباب وراء هذا الانحراف في الميزان !!

ففيما عدا قلة من الذين يذهبون الى هناك وهم يحملون قدرا من الحصانة الفكرية والنفسية والاخلاقية تمكنهم من مجابهة الضغوط والاستجابة لتحدياتها ، والخروج من المعركة سالمين .. فان الاكثرية الاكبر لا تملك اي قدر من هذه الحصانة .. ومن ثم فهي غير قادرة على مجابهة الضغوط .. انها بالفراغ الفكري ، والخواء الاخلاقي ، وانعدام الوزن النفسي .. ستتكمش وتتكسر لدى اول لقاء .. وحرام علينا ان نجازف بارسال هذه النماذج قبل اعدادها الاعداد الكافي .. اننا – والحالة هذه – كمن يختار ان يرمي بها لكي تنتحر هناك .. ان الغواصين الذين يتوغلون في البحر الى عمق يفوق قدرتهم على تحمل الضغط يتعرضون للهلاك، وان المبتعثين الذين يرمى بهم الى بحار اوروبا يراد ان يخرجوا سالمين من اعماق لم يهياوا اساسا للغوص فيها !!

ما الذي يحدث هناك ؟

ان القوى التي اشرنا اليها والتي تسعى لتوظيف حركة الابتعاث لتحقيق اهدافها ومصالحها على حساب الامم التي قدم منها هؤلاء المبتعثون .. هذه القوى تعتمد من الاساليب والامكانيات وطرائق التاثير ما يعجز عنه الوصف والاحاطة ، وما يجعل المعركة بين الطرفين غير متكافئة على الاطلاق ..

ولقد جاء العصر الحديث بثورته الثقافية الكبيرة لكي يتقدم خطوات واسعة في قدرة اساليب الصراع الفكري والنفسي وفاعليتها ..

هنالك اجهزة الاعلام من صحافة واذاعة وتلفزيون ومسرح وسينما واعلان ، وقد تقدمت هذا التقدم الفني المذهل ، وتحركت كالاخطبوط لكي تمد ارجلها السبعة الى كل مكان ، وتفرض هيمنتها على كل ميدان من ميادين الحياة الشاملة المعقدة المتشابكة .. والمبتعث يجد نفسه محاطا بهذه الاجهزة حيثما تنقلت به الخطى وحيثما انتهى به المطاف .. لا بد ان يسمع .. ويرى .. ويحس .. ويتفاعل .. وياخذ .. ويتجاوب .. ان الطرق المستمر يلوي حتى الحديد .. فكيف بالنفس البشرية التي يزداد طرق الاعلام عليها صباح مساء ، وباكثر الاساليب والصيغ اثارة واغراء ..

الا تلتوي هي الاخرى ، ويعاد تركيبها من جديد وفق المسارات والقوالب التي تستهدفها اجهزة الاعلام ؟.

هناك التاثيرات الفكرية وهي تاثيرات تنبثق في صميم المؤسسات والمعاهد والجامعات التي ذهب المبتعثون للدراسة فيها .. سيما اذا كانت دراساتها تنصب على الحقول الانسانية .. ها هنا من خلال المناهج والمحاضرات وطرائق التدريس والاساتذة المتخصصين، تجري بالنسبة للطالب المبتعث عملية غسيل للمخ من نوع مهذب – اذا صح التعبير – فاذا كانت المؤسسات البوليسية تمارس عملية غسيل المخ بصيغها الحادة ، والوحشية ، المناقضة لكرامة الانسان وحريته واختياره .. فانها على المستوى الاكاديمي تتم بهدوء يتضمن قدرا كبيرا من الاحترام للعقل البشري .. ولكنه احترام خادع لأنه يقود – على أية حال – الى النتيجة نفسها في كثير من الاحيان : غسل مخ الطالب المبتعث وحشوه بما يريده رجل الغرب ومصالح قياداته العليا ابتداء بالتقبل الكامل لاسس الثقافة الغربية ومواضعاتها وفلسفتها ورؤاها ، وانتهاء بالعمل المستمر – بعد العودة – على التبشير بهذه الثقافة وهدم كل ما يقف في طريقها ..

غسل الغربيون عقولهم .. فجاؤوا لكي يغسلوا بدورهم عقول تلامذتهم في جامعاتنا .. ولبس مبشرو الغرب أردية الكهنوت النصراني وجاؤوا ليمهدوا الطريق للاستعمار القديم .. فلبس هؤلاء اردية الكهنوت الاكاديمي وعادوا ليمهدوا الطريق للاستعمار الجديد !!

هنالك – ايضا – التاثيرات النفسية والاجتماعية ، حيث يزيد الاحساس بالغربة والضرورة الملحة في الانتماء الى البيئة الجديدة والتكيف معها والاندماج فيها .. يزيد في الاستعداد النفسي والاجتماعي (للتقبل) الذي يبدا هينا ميسورا ثم ينتهي لكي يشمل جل انماط السلوك وطرائق التفكير ..

يبدأ بالتقليد الشكلي في الملابس والمظاهر واللغة وبعض العادات والتقاليد ثم يمتد لكي يحتوي الشخصية وياخذ بتلابيبها .. ومن خلال المناسبات الاجتماعية وبيئات العمل والترفيه يذوب المبتعث المتغرب شيئا فشيئا ويصبح ليس فقط على استعداد لتقليد الغربيين الكامل في دقائق حياتهم وتفاصيلها ، وانما للمزايدة عليهم وتجاوزهم لكي ما يلبث ان يكون ملكيا اكثر من الملك ..

ونحن جميعا نعرف طرفا من هذه (التحف الشرقية) التي ارادت – قسرا – ان تستبدل بخزفها الاصيل ونقوشها الهادئة المنسابة .. بلّورا وكريستالا .. فاصبحت لا هي بالخزف ولا هي بالبلّور والكريستال ..

اصبحت مهرجانا من الاشكال والالوان لفقت تلفيقا مصطنعا ، فلم تعد تصلح لان تزين بها الدور والمحلات .. لم تعد تصلح الا في باحات السيرك واروقة البهلوانات .. ديكورات ، واكسسوارا !!.

وثمة أخيراً ، وليس آخراً ، محاولات التدمير الاخلاقي .. تفكيك كيان المبتعث حتى اخر مسمار فيه .. في مجتمع اصبح شرب الخمر والحشيش كتناول الخبز والماء .. وغدا الاتصال المحرم بين الرجل والمراة كركوب سيارة او قطار .. وقد يتم هذا التدمير والتفكيك والاستنزاف عفويا .. وقد يخطط له لجر اقدام الذين ابدوا بعض المقاومة ، والنتيجة في كل الاحوال سواء : ان يرجع الينا هؤلاء وقد استنزفوا حتى النخاع واصبحوا مستعدين لان يبيعوا حتى ضمائرهم واوطانهم من اجل اشباع شهوة غامرة او نزوة عابرة .. والذين يحاولون ان يمارسوا الحرام في السر ، لسبب او اخر ، ويسعون الى تغطيته كي لا يؤثر على مراكزهم الاجتماعية في بلادهم .. تتولى اجهزة التقاط الاسرار الكشف عن الاسرار فما تزيد هؤلاء الوجلين الا وجلا ، وما تزيدهم الا خضوعا لمن يقدر على هتك الحجاب فيعرضهم للدمار ..

أدوات .. على أية حال من الاحوال .. والذي يستعبد نفسه لشهواته تهون نفسه عليه وتصبح اكثر استعدادا لاستعباد الاخرين ..

وفينا من المبتعثين من لا تزال المشكلة الجنسية تؤرقة ليل نهار ، بسبب من الظروف المعقدة الصعبة التي يعيشها المسلم والتي لم ياذن بها الله ورسوله .. فما ان تطأ قدما الواحد منهم ديار الغربة حتى يصبح على استعداد من اول لحظة لان يقاد من فرجه !! أما عقله وضميره فانه يهبهما لهم يفعلون بهما ما يشاؤون ..

ويخطر على البال هنا ، من بين حشد كبير من الوقائع والنماذج ، ذلك الضابط الطيار الذي استهوته اميركية حسناء يهودية الهوى والانتماء ، فقادته بطائرته الميك ١٧ ، قبل معارك

(حزيران ١٩٦٧م) ، الى اسرائيل ، واغلب الظن انه لا يزال يعمل هناك ، ويقال انه كان واحدا ممن انقضوا بطائراتهم على المواقع العربية الغافلة في الصباح الحزين ..

ويخطر على البال كذلك – وفي مقابل هذا – ما حدثني به ضابط كبير القدر ومؤرخ معروف ، من انه ذهب الى انكلترا في الاربعينات مبتعثا لدورة في العلوم العسكرية : دخلت الغرفة التي اعدت لمنامي – يقول الرجل – فاذا بانكليزية حسناء تسوي اغطية السرير ، فاشحت بوجهي عنها ، وادرت ظهري لها ريثما تتم مهمتها ، ولكن مهمتها طالت باكثر مما يجب ، ولمحتها بطرف عيني تعبث بالملاءة ثم تعيد صقلها من جديد .. فلما لم تلق مني ما يشير الى شيء .. اكملت مهمتها ووقفت حذو السرير وسالتني : اثمة شيء اخر ؟ اجبتها بخشونة : كلا .. واحذرك مرة اخرى ان تعيدي اللعبة اياها .. اخرجي ..

في اليوم الثاني استدعاني الضابط الانكليزي المسؤول عن الدورة ..

وهنأني وكتب الى قيادتي في العراق تقريرا مترعا بكلمات التقدير والاحترام !!

اما الضباط الآخرون فيبدو ان بعضهم وقع في المصيدة التي كان ريقهم يتحلب لطعمها اللذيذ ، والتي نصبت لهم بمهارة لكي تحيلهم الى ادوات بايدي الشياطين ..

واغلب الظن ان الضابط الانكليزي وجد نفسه ازاء الرجل الشهم امام امر واقع فما كان منه ، تغطية للّعبة ، الا ان بعث بتقريره المذكور ..

ترى كم واحد من امثال هذا الرجل لم يخونوا الله في بعثتهم فقطعوا الطريق على مراكز التوجيه في ممارسة جريمة توظيف حركة الابتعاث لتحقيق المصالح والمنافع والاهداف ؟ !

استطاعت الامريكية ان تقود الضابط الاول من فرجه لكي يهرب بطائرة عربية ثم يغير بها على بني قومه .. ولم تستطع الانكليزية ان تخترق جدار الايمان الصلب الذي تميز به الضابط الثاني، فقدم لأمته كتابا عن (اليهود ومعركة المصير) يحذرها فيه من احتمالات قيام اسرائيل بشن حرب كاسحة ، ويحدد على ضوء خبرته العسكرية موعد هذا الهجوم .. فلم يستمع اليه احد .. لان العرب لا يقراون – كما يقول موشي دايان – وكان ما كان.!

– ٦ –

ان هذه الحادثة النموذجية تحتم علينا الا نقع في خطأ التعميم والا نغرق في التشاؤمية .. فثمة في افواج المبتعثين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ورحلوا الى الغرب لا لكي يقبسوا علمه ومناهجه ، محافظين على عقيدتهم وشخصيتهم ورؤيتهم فحسب ، بل ان يمارسوا بدورهم التاثير المعاكس ، فيحاربون في الساحة الغربية دفاعا عن عقيدتهم ويحققون لها الكثير من المكاسب والانجازات ..

ولكن هؤلاء – على اية حال – قلة بالنسبة للاكثرية التي تحدثنا عنها .. انها اشبه بحالة استثنائية تشذ عن القاعدة .. والقاعدة هي التي تهمنا – هاهنا – بالدرجة الاولى ..

ويزيد الامر سوءا انه قد رتب – على ما يبدو – بين الطرفين .. بين مراكز التوجيه في العالم المتقدم وبين بعض قياداتنا في العالم لاسلامي ، وفق خطة (الكماشة) المحكمة .. فلا يبتعث الى الخارج – في الاعم الاغلب – الا من يملك استعدادا للاسهام في اللعبة وتقبل نتائجها ، ولا تفتح ابواب العمل الثقافي او السياسي او الاداري بعد العودة – في الاعم الاغلب – الا للنماذج اياها .. بينما توصد الابواب وتوضع الحواجز والعقابيل امام العناصر الايجابية ذهابا وايابا .. وبمرور الزمن يزداد عدد اولئك العائدين من ديار الغربة وقد حصلوا على الشهادات العليا .. نعم .. ولكنهم هزموا في كل شيء : في ضميرهم واخلاقهم وفكرهم ونفسيتهم .. يزدادون عددا ، ويتحركون ، او يحركون ، لتغطية واشغال جل الكوادر المتقدمة في ميادين النشاط المختلفة فيقومون بدورهم ، طوعا او قسرا ، بارسال ارتال جديدة من المبتعثين على غرارهم تماما .. دونما فحص او اختبار او تمحيص .. لكي يذهبوا الى هناك فيكسبوا ، لا اقول العالم ، ولكن قطعة صغيرة من ارضه .. ويخسروا انفسهم .. وماذا ينفع الانسان اذا كسب العالم وخسر نفسه ؟!

انها – اذن – الحلقة المفرغة التي تزداد اتساعا واحكاما يوما بعد يوم لكي تستوعب المزيد من افواج المهزومين والمازومين .. فهل الى كسرها من سبيل ؟ !

– ٧ –

نعم .. وبكل تأكيد ..

وبمجرد ان يتوفر الاخلاص وحسن النية والوعي النافذ العميق ..

فثمة – كما ذكرنا في بدء هذا العرض – نوعان من الدراسات يتوجه الطلبة المسلمون الى الخارج لاستكمال تحصيلهم فيها .. الدراسات الانسانية (كالادب والتاريخ والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والعلوم السياسية والقانون .. الى اخره) والدراسات العلمية البحتة والتطبيقية (كالهندسة بفروعها المختلفة والطب والكيمياء والصيدلة وعلوم الحياة والرياضيات والفلك والعلوم الزراعية .. الى آخره).

ولأكثر من سبب يبدو – كما مر بنا – الا ضرورة لابتعاث المسلمين لاستكمال دراساتهم في الحقول الدراسات الانسانية ، وبالعكس فان سعيهم لاستكمال الدراسة في الحقول العلمية البحتة والتطبيقية ، يغدو – وفق شروط معينة – ضرورة ملحة .. ذلك ان حقول الدراسات الانسانية بكافة فروعها انما تستند في تفاصيلها وجزئياتها على قاعدة فلسفية شاملة

ورؤية عقيدية او فكرية (ايديولوجية) تكون بمثابة الضابط الموجه والدليل لكافة الجزئيات في اي حقل من حقول هذه المعارف .. ومن ثم فان التاثيرات الفكرية والعقيدية والفلسفية واسقاطاتها في العقول والنفوس ، تصورا وسلوكا ، لا بد ان تفعل فعلها لدى الطلاب الدارسين ، بحيث يضطرون في معظم الاحيان الى تقبل هذه الاسس الفلسفية والفكرية بدرجة او اخرى على حساب عقيدتهم الاسلامية وفكرهم الايماني ، ويعودون الى بلادهم وقد مسخوا بالصيغة التي ارادتها لهم الجامعات والمؤسسات التي درسوا فيها هذا العلم الانساني او ذاك .. وما اكثر ما جر هؤلاء الوبال على ابناء امتهم المسلمة بعد عودتهم الى بلادهم وهم يحملون فكر الغرب العلماني وعقائده المادية ورؤاه المنفعية الصرفة .. عادوا لكي يخرجوا – بدورهم – اجيالا اكثر انحرافا عن جادة الاسلام وبعدا عن صراطه المستقيم.

ومهما تحصن الطالب بالثقافة الاسلامية قبل ان يذهب الى الخارج ، ومهما توغل حسه الايماني في اعماق فكره ونفسه ووجدانه ، فانه في ظروف الغربة والضغوط النفسية والفكرية والتهديد بالمستقبل ، والاغراء باشد الاساليب خبثا ومكرا .. انه لا بد ان يتقبل قدرا من التاثيرات (السلبية) قد تشوه رؤيته الاسلامية وتبعد الى مناطق الشك والظلال بعضا من قناعاته وبداهاته السابقة ..

فاذا ما تذكرنا ان العالم الاسلامي في الربع الاخير من القرن العشرين هو غير ما كان في الفترات التي سبقت ذلك ، فيما يتعلق باتساع مجال الدراسات الانسانية وانتشار الجامعات والمعاهد ومؤسسات التخصص العالي ، ادركنا كيف انه ليس ثمة ضرورة لارسال الطلبة المسلمين الى الخارج لاستكمال دراساتهم في حقول المعارف الانسانية .. اللهم الا اذا اريد بذلك منح المسلم ، بعد تمكنه الاصيل من فكره الاسلامي وعقيدته ، وبعد اجتياز مراحل متقدمة في دراساته الانسانية ، منحه فرصة الاطلاع على الجانب الاخر من الفكر الوضعي والعقائد المضادة لكي يمتلك القدرة على المقارنة والنقد والمجابهة الواعية.

وعلى العكس من هذه الحقول ؛ تبدو ضرورية جداً مسألة ارسال طلبتنا الى الخارج لتلقي دراساتهم في حقول العلوم النظرية والتطبيقية التي اشرنا الى بعض فروعها .. فمما لا ريب فيه ان الغرب يتفوق علينا بمدى بعيد في مجال تقدمه العلمي والتقني ، وانه مهما تقدمت الدراسات العلمية والتقنية في بلادنا ، وانتشرت مؤسساتها ومعاهدها ومهما اتسع نطاق التعليم الجامعي في هذا الميدان ، فان الغرب سيظل ، لعدة عقود قادمة على الاقل ، هو صاحب السبق والريادة في هذا المجال .. ولمن يريد ان يدخل معه في السباق الحضاري المرجو ان يذهب اليه كي يرشف من النبع نفسه ويتعلم فنون العلم الغربي من مصادرها الاصلية ، ومن

خلال مستوياتها العليا ، من اجل تضييق الفاصل الزمني وكسب الوقت وتحقيق الانجاز بزمن قياسي.

ثم اننا يجب ان نفرق ، بشكل حاسم ، ونحن نرسل طلبتنا الى الخارج ، بين العلم نفسه، وبين فلسفة العلم ، ولنا في الاولى ان ناخذ وباسرع وقت ما نقدر على اخذه، اما في الثانية ، حيث التصورات والقيم والفلسفات والرؤى المجافية لفكر الاسلام ، المضادة لعقيدته ، المناقضة لبداهاته وقناعاته ، فان علينا ان نشعل الاضواء الحمراء كيلا تذوب شخصيتنا وينمحي وجودنا ونصبح مجرد اتباع ، او مسوخا للغربيين تعج بلادنا بالمهندسين والاطباء .. ولكنها تفتقد العقيدة والسمة والملامح !!

وكذلك علينا ، ونحن نبعث بطلبتنا الى الخارج لمواصلة دراساتهم في ميادين العلوم البحتة والتطبيقية ، ان نتحرك على ضوء برنامج عمل ذي معايير دقيقة كي لا نعرضهم هناك للضياع. معايير تتعلق بالعمر المناسب ومدى الحصانة والفاعلية اللتين تحددهما سلسلة من الاختبارات .. كما تتعلق بالبيئة التي سيبعث اليها بهؤلاء والتي يتوجب اختيارها جيدا على ضوء دراسة عميقة للعلاقات الدولية والظروف الحضارية .. وحيث يمكن تحقيق قدر من التكيف لاستغلال المتغيرات العالمية لصالح حركة الابتعاث .. فنحن نستطيع – على سبيل المثال – تفضيل اليابان في حقل الكهرباء وفرنسا في حقل الذرة على امريكا ، اذا كان المبتعثون اليها سيتعرضون لضغوط الصهيونية واحابيل التخطيط الامبريالي .. ونحن نستطيع – على سبيل المثال أيضاً – تفضيل الصين الشعبية في حقل زراعة الحبوب على الاتحاد السوفياتي حيث يراد بالدارسين فيه ان يتحولوا الى ادوات لتحقيق المصالح الروسية .. وهكذا ..

ولن ننسى هنا ايضا الاشارة الى ضرورة وضع اجهزة دقيقة وفاعلة للرقابة على سلوك المبتعثين هناك يمكن ان تلحق بالمؤسسات الدبلوماسية او القنصلية ، وتحديد قدر من ضوابط الجزاء والعقاب.

– ٨ –

وانها لفرصة ثمينة ان يجد المبتعث المسلم نفسه في مجتمع جديد ، غير اسلامي ، لكي ما يلبث ان ينطلق ، بالتنسيق مع سائر اخوانه المبتعثين ، لكسب الوقت والافادة من الفرصة من اجل ايصال صوت الاسلام وتقديم فكره الاصيل الى المجتمعات التي لا تعرف عنه الا القليل ، المشوه المبتور .. وخاصة اذا ما تذكرنا كيف ان التاثيرات الصليبية والشيوعية والصهيونية والاستعمارية ، تعمل عملها الدعائي والثقافي العنيد المستمر لتدمير كل ما هو اسلامي داخل تلك المجتمعات وخارجها ..

ولكن مما قد يوازن مسالة الصراع ضد هؤلاء الخصوم الذين يتميزون بالشراسة والماكيافيلية والخبث ، ان مجتمعات العلمانية والمادية ، أخذت تعي اكثر فاكثر حجم مأساتها ، وتلتاع ، اكثر فاكثر ، بالعذاب الذي تمخض ويتمخض دائما عن كل تجربة لا تحسب للموقف الديني ايما حساب جاد ..

ان تزايد هذا الاحساس او تعمق ذلك الوعي قد يمنح الاسلام فرصة جيدة في صميم تلك المجتمعات تمكنه ، ليس فقط من تحقيق قدر من التوازن في القوى عبر صراعه ضد الخصوم ، ولكن – ايضا – بالتفوق عليهم واتخاذ مواقع الهجوم بدلا من الاكتفاء بالدفاع ورد الشبهات .. وتلك هي مهمة المبتعثين الذين يعايشون تلك المجتمعات السنين الطوال ويصبحون اقدر – بمرور الوقت – على التواصل والتحاور معها .. على غزوها في صميم قناعتها وتجاربها .. من اجل اعلاء كلمة الاسلام في عالم اصبح اكثر استعدادا لتقبل تجربة هذا الدين العظيم من اي وقت مضى.

انه يتوجب على المبتعث المسلم ان يعمل ، او يجاهد بعبارة ادق ، على مستويات ثلاثة لكي يتحقق بالحد الاقصى في فاعليته العقيدية هناك في المجتمعات التي وجد نفسه فيها :

أ – جهاد النفس بكل ما يقتضيه من دفوع وارادة وعزم ومقاومة ..

ب – الجهاد مع اخوانه في نطاق مجتمعاتهم الاسلامية الخاصة كي تزداد الاواصر ، وتتمكن التجربة في الارض الجديدة ، وكي تنسق الطاقات وتحمى من كل ما من شانه ان يهددها بالتفكك والتبعثر والضياع ..

جـ – الجهاد في صميم المجتمع العام غير المسلم .. وتلك هي النتيجة التي تتمخض عن قدرة المبتعث على تحقيق النجاح في المجالين السابقين .. وها هنا يمكن للمبتعث ان يستخدم كل اسلوب ممكن لتحقيق المهمة التي عاهد الله على ادائها بالامانة المطلوبة والعزم الصادق الاكيد ..

فاذا اتيح للمبتعث ان يرجع الى بلاده ، عاد وهو اكثر وعيا واعمق ادراكا لمتطلبات الدعوة .. قديرا على مجابهة التحديات والتفوق عليها .. فها هو ذا في صميم مجتمع تجسدت فيه وبشكل مكثف كافة الشرور والماسي التي لا يكاد العالم الاسلامي – على شروره ومآسيه الكثيرة – يعاني عشر معاشرها .. ومن ثم فهو اقدر على تبيان الخطأ والصواب واقناع الخصوم بصواب موقفه وجدواه.

ان الرحيل يعلم كثيرا .. يفتح آفاق الذهن ويمنح الانسان مرونة فذة في التعامل مع الاشياء والحكم عليها .. وليس من جرب كمن لم يجرب .. فكيف ان انصب ذلك على ارضية

من الفكر المستنير والرؤية العقيدية الشاملة ؟ ان الرحيل حينذاك سيزيد قدرة المسلم على العمل المرن الواعي البصير ويمنحه سلاحا اكثر مضيا حيثما يتوجب البتر ، وفي الاقناع حيثما يتوجب الاقناع ..

ان المبتعثين العائدين من الخارج ، وقد عايشوا التجربة هناك جهادا من اجل التحقق الاعمق بالاسلام ، ومن اجل المجابهة الاكثر فاعلية ضد خصومه .. انما هم نماذج جيدة قد تحقق لأوطانها ، اذا استمرت على العطاء ، الكثير مما لا يمنحه اولئك الذين اضطرتهم الظروف ، او اختاروا – لسبب ما – ان يظلوا في بلادهم ..

وثمة الكثير من المشاكل الفكرية والنفسية والاجتماعية التي يواجهها المبتعث المسلم في البلاد الغربية ، منها على سبيل المثال لا الحصر وكما مر بنا : التاثيرات الاعلامية ، الضغوط الثقافية المضادة ، الحصار النفسي ، الغربة والحنين .. التهديد بالضمانات المعيشية .. الاغراءات اللا أخلاقية في مجتمع عار مفكك تتبذل فيه الشهوات وترخص حتى تكاد تصبح خبز الانسان اليومي ..

ولكن الضغوط المتزايدة ، وفي حدودها المعقولة ، قد تدفع الانسان المسلم هناك ، الى نوع من الغيرة ، من الاعتداد بالذات ، من القدرة على المقاومة ، من الرغبة الممتعة في الاستجابة للتحدي والرد عليه بمزيد من الانضباط والاستعلاء والتوحد والمجابهة .. ان الصراع سيغدو انذاك رغم تكاليفه الباهظة ، ممارسة يومية متحدية ممتعة ، واننا لنتذكر هنا مضمون واحد من أحاديث الرسول (عليه الاسلام) .. " ان المسلم كلما غض طرفه عن النساء كلما ازدادت في قلبه حلاوة الايمان "!!

وانها لحلاوة حقا يستشعرها كل من كتب عليه ان يقاوم في صميم النار فيعرف كيف يخرج منها متطهرا نقيا ، دون ان تصيبه بالحروق ..

ان الحل المناسب للمشكلات التي يعانيها المبتعث هو هذا : المزيد من تاصيل الذات والتحقق .. بما سمّاه ((الرسول عليه السلام (الجهاد الاكبر))) اي المقاومة على مستوى النفس ولا بد ان ينضاف ذلك الى سعي جاد على مستوى اخر .. مستوى الجماعة الاسلامية المتواجدة في بلاد الغرب لتحقيق قدر اكبر من التنسيق بين الطاقات وتجميعها ، وتنظيمها ، من اجل ان تصب في البؤرة الواحدة فتكون اكثر فاعلية وعطاء .. تعرف كيف تحرق وتنير في الوقت نفسه !!

فالذئب لا يأكل من الغنم الا الشياه القاصية ..

وصدق رسول الله.

حوار في المعمار الكوني

– ١ –

ان احدى الخصائص الاساسية التي تفرق الاسلام عن سائر المذاهب البشرية تكمن في النظرة الى المعمار الكوني.

ان الاسلام يراه بنيانا مركبا يتضمن المادي واللامادي ، المنظور والغيب ، الظاهر والباطن ، الذي يمكن ان نتعامل معه بالحواس والذي لا يمكن التعامل معه الا بوسائط اخرى غير حسية بدءا بالعقل وانتهاء بالوحي الالهي ، مرورا بقوة الروح !

هذا بينما تراه المذاهب الاخرى بنيانا مسطحا ذا وجه واحد ومضمون غير مزدوج . فهو ذلك البنيان المادي المنظور ، الظاهر ، الذي تقدر الحواس على التعامل معه والكشف عن اسراره ومعمياته !

– ٢ –

يرى الاسلام في المعمار الكوني طبقتين تبرز احداهما بمواجهة الحواس ، وتغيب الاخرى .. تغيب عن الرؤية المباشرة فقط ، ولكنها في حقيقة الامر ليست موجودة فحسب ، او مؤكدة فحسب ، ولكنها اكثر ثقلا وحضورا وتاثيرا في الصيغة النهائية للمعمار الكوني ، وفي المعطيات التي يتضمنها بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

وترى المذاهب البشرية ، التي بلغت اقصى حدتها وتسطحها في (المادية الديالكتيكية)، ترى في المعمار الكوني طبقة واحدة ، ليس وراء كتلتها المادية وجرمها الثقيل ذي الذرات والجزئيات والاحجام والمساحات اي شيء على الاطلاق.

والذي ينتمي لهذا الدين يتحتم عليه منذ اللحظة الاولى ان يتجاوز هذه النظرة الاحادية المسطحة ، اللاصقة بالمنظور .. يتجاوزها صوب العمق ، صوب البعد الاخر للمعمار الكوني، والتيقن الكامل بان هناك فيما وراء هذه الطبقة المنظورة طبقة اخرى غير منظورة ، لكنها اكثر وجودا وحضورا وتاثيرا ..

– ٣ –

إنه الغيب الذي يحيط بالطبقة المرئية ، يتخللها ، يقف وراءها ، يمتد الى جذورها البعيدة ، ويتشوف صوب الافاق التي لا تطولها هذه الطبقة مهما علت شرفاتها وامتدت ادوارها في السماء.

هذا الغيب الذي ينعكس حضوره على الوجود الكوني باشكال وصيغ مختلفة بدءا من عملية الخلق والتشكل التي يحقق فيها الغيب حضوره بصيغة منظور مادي ، وانتهاء بدمار هذا

المنظور وتفتته عند يوم الحساب وبفعل قوة الغيب نفسه ، مرورا بكل الصيغ والمعطيات اللامادية التي تملا ساحة المعمار الكوني ، تعج بها ردهاته وممراته واروقته ، بل انها تتخلل جزئياته وذراته.

ان الله الخالق (سبحانه وتعالى) ، والروح المنبعثة عن نفخة الله (جل وعلا) ، والوحي الذي ينقل تعاليم السماء للارض ، لئلا يضل الانسان ويضيع ، كلها من الغيب ، وعلى المسلم ان يسلم بها ويطمئن لها عقله وقلبه ووجدانه ، لان مجرد انتمائه للاسلام يعني قدرته على كسر جدار المرئي القريب ، والتشوف بعيدا فيما وراءه صوب البعد او الوجه الاخر للمعمار الكوني.

وان الملائكة والجن والشياطين هي من الغيب الذي يتحتم ان نسلم به ، والذي يعكس تأثيرته المرئية وغير المرئية بما يؤكد حضوره وفاعليته ..

وان طاقات الانسان اللا حسية بما فيها الخيال ، والتذكر ، وما يسمى بالحواس ما وراء الخامسة ، وطرائق عمل العقل .. الخ ، لهي من الغيب الذي يتخلل الانسان نفسه ويمكنه؛ في الوقت ذاته ، من مد الجسور بينه وبين الطبقة المغيبة من المعمار الكوني.

بل ان حركة الذرات المادية نفسها ، ما يجري في مساراتها غير المرئية ، في نيوتروناتها وبروتوناتها ، ما يتدفق في فوتونات الاحزمة الضوئية ، ما يخفق في جذب المغناطيس وانبعاثات الكهرباء .. لهي كلها ، بشكل من الاشكال ، حالة غيبية لا زالت مستعصية ، كالروح نفسها ، على التحليل النهائي الذي يخضعها للمختبر ويجعلها امرا مرئيا وملموسا .. يتيح للانسان ان يحيلها الى المادي المنظور ..

– ٤ –

ان الانتماء للاسلام يعني التسليم بهذه الحقيقة حتى قبل ان يؤكدها العلم ، حتى قبل ان تعبر عن نفسها عبر معطيات النشاط البشري وافعاله الحضارية .. يسلم بها لان الله سبحانه يقول بوجود الطبقتين في معمار الكون ، ويخرج به عن خداع الحواس واسر المحدود ، والاعتقاد الضال بان هذا المعمار لا يعدو ان يكون طبقة واحدة.

ومنذ الكلمات الاولى في كتاب الله نلتقي بهذه الحقيقة ، هنالك حيث يرتبط الايمان بالغيب بسائر الممارسات الاسلامية التي يتعشق معها ، بل حيث يغدو الاساس الذي تقوم عليه رؤية المسلم ةيستند اليه سلوكه اليومي وتبنى عليه انشطته ومعطياته

((الم(١)ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(٢)الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣)وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤)أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ))[١].

تلك هي العلاقة الفارقة ، والاشارة الحاسمة ، والحد الفاصل بين الايمان وبين الكفر ، بين الاسلام وبين سائر المذاهب والرؤى والتحليلات.

طبقتان في المعمار الكوني ، فليس ثمة بعد واحد ، مسطح ، ممسوخ ، كما يريد الوضاعون ان يصوروا ، وانما هو البعد المركب ، الغائر ، العميق ، الذي يعكس الحقيقة النهائية كما خلقها الله ، والذي يعبر عن السر الالهي الذي اودعه سبحانه وتعالى في هذا المعمار الهائل .

– ٥ –

والقرآن الكريم نفسه في مقابل هذا كله ينعي على الوضعيين رؤيتهم المسطحة هذه وعلمهم التافه الهزيل ، ونظرتهم القاصرة الى الكون فيصمهم بانهم ((**يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا**))[٢] ، ومن ثم فانهم لا يرون الا المرئيات القريبة ، فاما ما وراءها ، من يتحكم بها ويصوغها ، فانهم عاجزون عن رؤيته . ومن اجل التغطية على حجزهم هذا ، على قصورهم وانحسارهم ، يلجاون الى خدعة سهلة ، لكنها مكشوفة ، فيرفضون الاعتقاد بوجود طبقة اخرى للمعمار الكوني وعالم اخر غير العالم الذي تلمسه الايدي وتسمعه الاذان وتراه العيون .. بل انهم يمضون الى ما هو ابعد من هذا ، ومن اجل مزيد من التضليل ومزيد من الاقتناع بصدق موقفهم في الوقت نفسه ، فينظرون رؤيتهم هذه ، يفلسفونها ويقدمونها في اطار مذهب او نظرية او فلسفة ، بل ان بعضهم يبلغ به الغرور ان يسعى لربطها بالعلم المختبري ، رغم ان هذا العلم هو بحد ذاته اداة غير صالحة للحكم على الغيب ورغم انه ، عبر العقود الاخيرة ، اخذ ينحني للبعد الغيبي ، ويقر ثقله وحضوره في صميم النسيج الكوني بصيغة او باخرى.

– ٦ –

هذه هي الحقيقة التي يتحتم ان تكون واضحة في الاذهان ، وفي العقل والوجدان ان المسلم بشكل خاص ، لدى مناقشة بعض الجزئيات التي قد تبدو غامضة بعض الشيء ، غير مقنعة للوهلة الاولى.

---

(١) سورة البقرة ، (الآيات ١–٥).

(٢) سورة الروم ، (آية ٧).

في أمسية مع حشد من الاصدقاء تساءل احدهم عن معنى ان تكون النجوم ، هذه الكتل المادية المحكمة الترابطة الهائلة .. رجوما للشياطين !

ما هذا ؟ تساءل بنوع من القناعة المهزوزة التي تتجاوز قلقها صوب الاستنكار .. اننا في عصر العلم ، عصر التقدم المذهل لعلمي الفيزياء والفلك على وجه الخصوص ، قد لا نسلم بما كان يسلم به اجدادنا .. اولئك ما كانوا يرون جيدا ما يجري في ساحة الكون .. لم يكن العلم قد قدم لهم ما فيه الكفاية .. انا الان ، فكيف نتقبل مسالة ان تكون النجوم رجوما للشياطين ؟

أطرقت سمعي وهو يتحدث .. كلمات استغفار تصدر عن بعض الجالسين ، ولمحت في الوقت نفسه رؤوسا ترتفع وتنخفض وكانها تقر التساؤل ، تتعاطف معه ، او على الاقل تتمنى لو تعثر على جواب ترتاح اليه ..

قلت له : اتسمح لي ؟

قال : بكل تأكيد ، فانا منذ زمن اسعى لطرح (شكي) في هذه المسالة ؛ لكنني كنت اخشى ان اتهم بالمروق ، فما هي في الحقيقة الا الرغبة الجادة في مزيد من اليقين .

أجبته : اذن لنرجع الى نص الاية الكريمة التي صدر عنها تساؤلك ذاك ، انها تقول ((**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ**))[٣] ، فهي اذن تتحدث عن السماء الدنيا فقط ، لا عموم السماوات ، السماء القريبة المحيطة بكرتنا الارضية التي لا تعدو ان تكون ذرة لا تكاد ترى في بحر الكون الشاسع البعيد .. وفرق كبير بين ان تكون النجوم في مدى الكون كله رجوما للشياطين ، وبين تلك النجوم المحدودة ، الصغيرة نسبيا ، القريبة ، التي تطل على العالم وتتحرك عند فضائه القريب.

– ٧ –

ثم ان الآية نفسها تعرض وظيفة اخرى لهذه النجوم القريبة ، بل انها لتسبق بها وظيفتها التالية ، تلك هي الوظيفة الجمالية ، وايضا بقدر ما يتعلق الامر بكرتنا الصغيرة ، بحياتنا البشرية على سطح هذه الكرة ، وبارتباطاتها ومطالبها وغاياتها وطبيعة سعي الانسان فيها.

انها تؤكد هنا (المسالة الجمالية) وحضورها المؤثر ، ان على ساحة الطبيعة والعالم، وان على مستوى التجربة البشرية واشواق الانسان ، وان في نسيج التصور الاسلامي للوجود الذي لا يغفل لحظة عن الجانب الاخر للحقائق والمعطيات وهو الجانب الجمالي ، جنبا الى جنب مع الضرورات.

قال : اذن فهنالك اكثر من وظيفة للكواكب والنجوم !!

---

(٣) سورة الملك ، (آية ٥).

أجبته : في السماء القريبة فحسب ..

قال : ولكن ما حكاية رجم الشياطين بالنجوم ، بغض النظر عن قربها او بعدها ، وبغض النظر كذلك عن وظيفتها الاخرى ؟

قلت : لقد كنت احدثك حتى الآن في حدود الطبقة المنظورة للكون ، لم اتجاوز ذلك الى الطبقة الاخرى ، الطبقة المغيبة التي لا تقل ثقلا وحضورا عما تراه وتلمسه من مباشر منظور ..

ان الجان والشياطين عوالم غيبية تعيش بين ظهرانينا ، تتخلل وجودنا الارضي وتتعشق معه ، قد لا نراها ، ولكننا – احيانا – نلمس تاثيراتها ، وهذه التاثيرات اخذت تتزايد وتتأكد أكثر فاكثر بتزايد الخبرات البشرية فيما يعرف بدوائر تحضير الارواح والممارسات المرتبطة بها.

لا نراها .. لكننا نلمس تاثيراتها وهذا يكفي – علميا – لتجاوز موقع النفي ، بل يكفي للوصول الى حافة اليقين ، لانه شبيه ، بشكل من الاشكال ، بكثير من الظواهر الطبيعية كالضوء والمغناطيس والكهرباء .. الخ تلك التي لم يقدر العلم ان يبلغ ماهيتها ولكنه تمكن من التعامل مع تاثيراتها وخواصها فصنع بذلك الاعاجيب في ميادين النظريات والتطبيقات (التكنولوجية).

– ٨ –

كنت أجد صديقي ذاك منصتا باهتمام فواصلت حديثي : ان هذه العوالم المغيبة عن الابصار ، تملك قدرة على الحركة السريعة فيما لا يملك الانسان مقدارا ولو تافها منها ، لانها موجودات غير مادية بينما الانسان المتعشقة روحه بالجسد ، يجد من ثقل المادة وشد الارض وقوانين الجاذبية المادية ما يعرقل حركته ويبطىء بها ، وليست الانشطة الباهرة للعلم الحديث، في جانب ما من جوانبها ، الا محاولة لتمكين الانسان ، بالتقنية المتقدمة ، والعلم المتوغل في اسرار الكون ، من تجاوز البطء والتحقق بحركة اسرع في رحاب الكون القريب.

وان العلم نفسه ليعلمنا كيف ان الضوء الذي تتدفق فوتوناته بعيدا عن اسر المادة يتحرك بسرعة مذهلة ويتجاوز المسافات الكونية الشاسعة بدقائق زمنية ولحظات ، وهو بسبب من حركته الباهرة تلك يتخذ مقياسا للمسافات الشاسعة في المعمار الكوني بين مجموعة ومجموعة وجرم وجرم.

ان الجان والشياطين ، والملائكة بطبيعة الحال ، لتشبه ، من ناحية من النواحي ، هذه الطاقة الضوئية ، فتملك قدرتها على الحركة السريعة واجتياز الاماكن بما يشبه المعجزات.

– ٩ –

ليس من حق احد ان يلح في الحديث عن الوجود الغيبي في الكون لان ادواتنا الحسية لا تعيننا على التحقق بنتائج يقينية مطلقة .. ولذا يكفي ان نسلم بما ورد في كتاب الله عن هذا الوجود ، وتطمئن قلوبنا لعلم الله الذي يعلو على علوم المخاليق والعباد ، ولكنني مع هذا احب ان اقرب المسالة اليك ، فارجو الا تتصور كلامي هذا بمثابة الحقيقة النهائية عن الموضوع الذي اثرته قبل قليل.

قال : انا لا تهمني هذه المسالة ! وكل الذي ارجوه هو ان تواصل تحليلك لعلي اصل الى نوع من القناعة التي اشعر ان غيابها يمضني بقلقه ..

قلت : هذه العوالم الشيطانية ، بما انها في وضع تحد مع الله (ﷻ) ومع عباده المؤمنين فيما نعرفه جميعا منذ لحظة خلق ادم ، ورفض ابليس السجود له ، واعلان عصيانه ، وقسمه على الله ان يمارس ((غواية)) الانسان حتى يقوم الحساب .. هذه العوالم تستغل قدرتها على الحركة السريعة وعلى اجتياز التحديات المكانية لتنفيذ جانب من وظيفتها في الغواية والتضليل ، فتحاول بين الحين والحين ، ان تسترق السمع الى الملا الاعلى للاطلاع على جانب مما يتقرر فيه ، والعودة ثانية الى الارض ، لاستغلال هذه المعلومات المسترقة ، في تضليل الانسان ، والعبث بمقدرات الرسالات ، والمؤمنين بها ..

ان المسالة لشبيهه الى حد ما بمحاولة بعض المتنفذين ذوي الامكانات الخاصة ، في عدد من الدول والحكومات ، استراق معلومات خطيرة من مصادرها العليا للافادة منها في عمل تخريبي او تضليلي مضاد لتلك المصادر.

ان الملأ الأعلى ، اذا جاز لنا التصور ، هو أشبه بدائرة تخصص عليا لصياغة الاوامر واصدارها ، وان محاولة الشياطين اختراق تلك الدائرة قد تعرض الاسرار الكونية للانتشار، ومصائر العالم والناس الى عبث ليس من السهولة بمكان تصور نتائجه !

ومن اجل الا يتاح لهذه المخلوقات تحقيق هدفها المضاد ذاك ، تجابهها ارادة الله سبحانه بسلاح مضاد !

– ١٠ –

تساءل صاحبي دهشا : بالنجوم ؟

قلت : ولم لا ؟ انه سلاح من جنس هذه المخلوقات المكونة من نار السموم ، ان النار لا تجابه الا بالنار ، ثم اذا رجعنا الى العلم الحديث كرة اخرى لوجدناه يؤكد هذه المسالة ..

قال بتسرع : كيف ؟

قلت : كثيرة جدا تلك الاجسام السماوية التي نراها عبر الليالي وهي تخر من سماواتها البعيدة وتحترق في الفضاء تاركة خطأ طويلا من النار !

قال : الشهب والنيازك.

قلت : انها هي ، والقرآن الكريم في الآية التي بدانا بها الحوار لا يسمي الاجسام التي يقذف بها الشياطين نجوما ولكنه يسميها مصابيح ، وفي آيات اخرى يسميها شهبا دون ان يتابع تحديد احجام هذه الشهب والمصابيح سواء كانت طنا واحدا او الوفا من الاطنان ، فكتاب الله ليس كتاب هندسة او حساب ولكنه كتاب مبادىء كبرى يتحرك على هديها الانسان.

قال وهو يحاول ان يتشبث بيقين اكثر كان يطمح اليه : ولكن علام هذه الصيغة المعقدة الطويلة بين الله وبين الشيطان لحماية الانسان ؟ اما كان بمقدور الله ان يحسم المسألة بصيغة اكثر سهولة ومباشرة ؟.

– كيف ؟

– ان يشل الشياطين عن العمل .. ان يوقفهم عن الحركة .. فلا يقدرون من ثم على الاختراق والاستراق ..

– معنى ذلك ان يجردهم من خصائصهم .. من القدرة على تحقيق وظيفتهم في الكون والعالم ، ومعنى ذلك ايضا ايقاف جانب من اهم جوانب الصراع والتحدي التي تجابه الانسان والتي بها يقدر على التحقق والحركة والفعل .. ويخرج منتصرا في معركة الوجود ..

ان الشيطان اما ان يطلق بكامله طاقاته الفاعلة لكي يجابه الانسان كما اراد له الله سبحانه وتعالى ان يفعل لحكمة يعرفها الجميع ، واما الا يكون على الاطلاق.

قال وهو يبتسم : حسبك يا هذا ، لقد سددت علي ثغرات التساؤل كلها !

قلت : او لم تكن انت تتمنى ذلك ؟

اجاب : بكل تاكيد ، ان ما قلته يكفي .. و ..

قاطعته : ابدا ، انه لا يكفي بكل تاكيد !

تساءل : كيف ؟ انني اقتنعت ..

قلت : ستستفزك ((جزئيات)) اخرى في كتاب الله .. ستأتي في أمسيات قادمة وانت تحمل شكوكا شتى قد لا تعرضها للمناقشة والحوار ولكنها ستنبجس في نفسك وعقلك ينابيع دائمة للقلق واهتزاز اليقين ..

- ١١ -

قال : لا افهم ماذا تعني ..

اجبته : ستتساءل عن معنى اشتراك الملائكة في معركة بدر ، وعن الثمانية الذين يحملون عرش الله يوم القيامة ، وعن السلسلة التي طولها سبعون ذراعا ، لا ستون ولا ثمانون !! وعن الجن الذين استمعوا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو عائد من رحلته الى الطائف .. وغيرها كثير ..

قال : ولكنني ..

قاطعته مرة اخرى : اذا لم تكن تعرفها الان فستعرفها يوم تشمر عن ساعد الجد للقيام برحلة طويلة في كتاب الله.

تساءل : ماذا اذن ؟

قلت : ان يؤمن الانسان ابتداء ، واشدد على كلمة ((ابتداء)) ، بان المعمار الكوني ليس جرما ماديا فحسب ، ليس طبقة واحدة ، او وجها مسطحا منظورا ، لكنه تكوين معقد متشابك يتضمن المادي والغيبي ..

طبقتان بنيت احداهما من تراب الارض وحجارتها وحديدها وخشبها ، واقيمت الاخرى بتكوينات غيبية يصعب على الحواس ان تلمسها او تسمعها او تراها .. قد تلمس وترى تاثيراتها، ولكنها لن تقع على ماهيتها بحال من الاحوال.

ان الامر واضح جدا ، فاذا كان الاسلام نفسه قائما على الوحي وهو بعد غيبي ، واذا كان كتاب الله قادما بطرائق غيبية ، واذا كانت ظاهرة الرسالة امرا غيبيا ، واذا كان الله (جل في علاه) مغيبا كنهه عن الابصار ، ثم اذا كان القرآن الكريم نفسه يحدثنا في مئات المواضع عن الغيب والوجود الغيبي كحقائق اكثر يقينية وحضورا من الموجودات والاشياء المادية المعرضة للقلق والاهتزاز والتفتت ، والتي اخذ العلم يكشف عنها الغطاء .. يعريها .. فاذا بها هي الاخرى حركة ، وظواهر ذات جذور غيبية لا تخضع للحس القريب

اذا كان هذا وذاك فنحن اما ان نكون مسلمين (فنسلم) بكل ما يقوله كتاب الله ، او لا نكون مسلمين على الاطلاق ..

- ١٢ -

ولكن هل ان موقف الانسان ، غير المؤمن ، واعتقاده بالطبقة المادية الواحدة للمعمار الكوني ، ورفض الاعتراف بكل ما له علاقة بالطبقة الاخرى ، يعد موقفا علميا مسؤولا ؟

كلا .. بكل تاكيد ، ما دام ان العلم نفسه يعلن اليوم ، ويلح في الاعلان ، على انه بكسره لجدار الكون المادي اطل على عالم غائر ، بعيد ، محيط ، ليس بمقدور العقل والحواس ان تمسك بتلابيبه .. ذلك هو عالم الغيب.

ليس هذا فحسب ، بل ان موقفا خاطئا كهذا لا يمنح الانسان سويته النفسية ولا يتيح له التحقق في العالم كانسان ..

وشتان بين انسان يعيش حياته ملتصقا بجدران المادة ، منقرا بترابها ، مشدودا الى طينها ، وبين انسان يقف على الارض .. نعم .. ولكنه يمد نظره الى الافاق البعيدة لكي يمنح وجوده معنى ، ويمكن تكوينه النفسي من التوازن والامتلاء ..

من المحدود الى المطلق .. ومن الحفر الضيقة الى السماء .. ومن الفناء الخلود ..

ذلك معنى ان نسلم بحقيقة المعمار الكوني ذي الطبقتين ، وإلا فان ألف فلسفة او مذهب وضعي ، او تنظير ، لا يفعل باكثر من ان يبني بين الانسان وبين رويته العلمية المؤمنة للكون .. سدا من الخرافات والاوهام والاضاليل والاهواء والظنون .. **((وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا))**[٤].

وصدق الله العظيم .

---

(٤) سورة النجم ، (آية ٢٨).

خرافة الاسرة ام خرافة الفكرة ؟

– ١ –

اللعب على التقاليد البشرية المنبثقة عن الفطرة والموغلة في شرايين الناس ، والمتعشقة مع معطياتهم الحضارية ، قديم ..

مئات من الكهنة والدجالين والمرتزقة والفلاسفة والمفكرين مارسوا هذه اللعبة تارة باسم الدين وتارة باسم حقوق الانسان وتارة ثالثة باسم الحقيقة الفلسفية او الضرورة الفكرية .. وتارة رابعة باسم التطور او التقدم او حتميات التاريخ ، او ما شئنا من تسميات ..

وكانت دوافع اللعب المضاد لحاجات الانسان الاساسية مختلفة ، لكنها لم تكن تخرج عن حدود الرغبة في الكسب على حساب الحقائق والاصول والتقاليد .. كسب المال حينا وكسب الانصار حيناً آخر ، والتأله في الارض باسم الادعاء والمعرفة المطلقة حينا ثالثا.

يستوي في ذلك كاهن يبتز اموال الناس من خلال الاوثان التي يصنعها ، أو خطيب مهرج يبتز عواطف الناس من خلال الدعاوى التي يطرحها ، او فيلسوف مفكر يبتز عقول الناس من خلال العقائد والفلسفات التي يكتبها.

– ٢ –

ان ماركس وانغلز يطرحان مثلا ، في المنشور الشيوعي المعروف ، هذه المقولة بمواجهة واحدة من اشد التقاليد البشرية اصالة ، وديمومة ، وامتدادا ، واكثرها توغلا في نظمهم ومؤسساتهم الحضارية ، واعمقها ارتباطا بفطرتهم وتكوينهم ، تلك هي الاسرة.

يقول المنشور : ((ان الاسرة البورجوازية سوف تختفي بشكل طبيعي باختفاء راس المال .. اما التهريج البورجوازي عن الاسرة واهميتها في التربية ، وعن اهمية العلاقة بين الولد وابويه ، فهو مما يثير الاشمئزاز. ان تقدم الصناعة الحديثة سوف يقطع كل الصلات العائلية بين افراد الطبقة العاملة)).

ويومها صدق كثير من المخدوعين ببريق المنشور ودعاواه الثورية الانقلابية الشاملة .. هذه الخرافة .. وعرف ماركس وانغلز كيف يربطان بين حاجة الناس الى التغيير في مجتمع يفتك فيه الظلم والانحلال وبين خرافات كهذه تسعى لتدمير قيم ومؤسسات تعلو على الوقائع التاريخية المحددة ، والممارسات المحدودة في الزمن والمكان وتمتد لكي تفرض وجودها في كل تجربة تاريخية وتكون في كل زمن ومكان لانها تنبثق عن فطرة الانسان الاصيلة وتكوينه

الذي يميزه عن سائر الخلائق وهما امران لازمان للانسان ما دام يحمل هذه الصفة ، ملتصقان بوجوده التصاق القلب بالشغاف.

– ٣ –

ويكفي ان ننظر الى التجارب الشيوعية نفسها ، على اختلاف وجهاتها ومساراتها بين معتدلة ومتطرفة ، اصيلة وتحريفية ، كما يحلو لهم ان يتهموا بعضهم ، يكفي ان ننظر اليها جميعا لكي نراها بعد محاولات متواصلة مجهدة لتنفيذ المقولة التي طرحها المنشور الشيوعي، تفشل فشلا ذريعا ، وتعلن بلسان المقال حينا وبلسان الحال في معظم الاحيان ان تنفيذ هذه المسالة دونها المستحيل والمستحيل هو تغيير التكوين الادمي نفسه واعادة تركيبه وفق صيغ ومعادلات اخرى قد تنتج اي شيء الا ان يكون هذا الشيء انسانا !

– ٤ –

((اختفاء الأسرة بإختفاء رأس المال)) .. وهب ان رأس المال قد اختفى في العديد من الدول ، او كاد ، لكن الاسرة ازدادت قوة ورسوخا ، ومضت بتقاليدها الاصيلة لكي تعلو على كل المتغيرات فلا تتاثر بفعل او رد فعل فيما يمكن ان يزيلها من الوجود.

((اهمية الأسرة في التربية وفي العلاقة بين الولد وابويه مسألة تثير الاشمئزاز)) .. هكذا يقول المنشور ، ولكن الواقع حتى في الدول الشيوعية التي تبنت المنشور ، يقول ما يخالف هذا ، ويؤكد بشكل متزايد اهمية الاسرة في التربية باعتبارها حجر الزاوية ، واهمية العلاقة بين الولد وابويه باعتبارها ضرورة للتحقق بالحد الادنى من السوية النفسية ، وانه ليس ثمة مؤسسة تغني عن الاسرة في اعداد جيل سوي ، متوازن ، غير منحرف ولا جانح ، قدير على مواصلة اعباء الحياة بالصيغ التي تليق بالانسان وتمكنه من مواصلة نموه الحضاري.

وبمجرد نظرة سريعة على ثقل الاسرة كواقعة اجتماعية وضرورات العلاقة التربوية بين الولد وابويه تجعل المرء يشمئز من مقولة الرجلين صاحبي المنشور ، ويتشكك في جديتهما وقدرتهما على طرح الحقائق الثابتة التي لا تتعرض للشك والاهتزاز.

– ٥ –

وغير الاسرة ، كثير من الممارسات الاصيلة المنبثقة عن الانسان ذاته وليس عن الطبقة التي ينتمي اليها ، او العرق الذي ينحدر منه ، او البيئة التي يدرج فيها. وقد وقع الرجلان في الخطأ وجرا وراءهما طوابير طويلة من العباد والمعجبين حين تصورا ان هذه

الممارسة او تلك ، كالاسرة او الدين او غيرهما ، انما هما انعكاس طبقي يزولان بزوال الطبقة التي شكلتهما ودفعت بهما الى الوجود.

ولو انهما تحررا قليلا من اسر المنظور الطبقي الضيق ، ونظرا الى الانسان على مدى انسانيته التي تتجاوز المحدود ، لما تورطا في مقولة كهذه لا تعدو ان تكون واحدة من الخرافات التي تمرس الكهنة والدجالون في صياغتها على مدى التاريخ.

انها خرافة الفكرة الخاطئة وليست – بحال – خرافة الاسرة الموغلة في الزمن رغم تبدل الاوضاع وتغير الاحوال.

– ٦ –

يقول المفكر والاديب المجري المعروف ارثركوستلر ، متحدثا عن احدى خبراته ايام انتمائه للحزب الشيوعي الالماني في الثلاثينات :

((كانت فتاة ضئيلة الجسم ، قبيحة الوجه ، لم يحدث ان التقيت بها من قبل ، الا ان اهمالها المتعمد لهندامها ، وطريقتها العنيفة في ولوج الغرفة انبأتني على الفور انها احدى الشيوعيات. كانت من النوع الذي كثر وجوده في الحزب الشيوعي الالماني في ذلك الحين ، الفتاة البورجوازية التي لم تلق النجاح في مجتمعها فتحولت بمشيئتها الى الطبقة العاملة))[٥].

فها هنا نلتقي بإمراة تتحول ((بمشيئتها)) من طبقة الى اخرى فتتجاوز بسلوكها المنظور الحتميات الطبقية للنظرية التي انتمت اليها ، تخترق هذه الحتميات ، بالارادة الحرة ، ويكون الدافع النفسي (وهو هنا يتمثل بمحاولة التعويض عن القبح الجسدي) افوى من الدافع الطبقي الذي تقول به النظرية.

ونحن جميعا نعرف ان هذه ليست حالة فريدة او استثنائية ولكنها تيار عريض ضم المئات والالوف من المنتمين للشيوعية ، وقد شهده كل واحد منا في بلده يوم اتيح لهؤلاء ان يتحركوا على هواهم وان يكسبوا الاتباع والمريدين.

وها هنا ايضا نلتقي بصيغة من صيغ الالتفاف على الطبيعة الانثوية للمراة (متمثلة بالاهمال المتعمد وبالطريقة العنيفة في الحركة فيما يذكرنا ببطلة رواية الاديب الانكليزي جورج اورويل : (١٩٨٤م) حيث تتعرض المرأة لسلسلة من الضغوط والتعليمات المضادة لطبيعتها من اجل مسخ انوثتها وتحويلها الى شيء آخر تماما) .. نلتقي بهذه الصيغة كنموذج اخر للممارسات الشيوعية المبكرة التي سلمت باستنتاجات ماركس وانغلز عن المراة ، والعائلة ، واعتقدت – خطأ – ان بمقدور الشيوعية ان تحقق المساواة المطلقة بين الرجل والمراة ، وان

(٥) عن كتاب (الصنم الذي هوى) ، لكوستلر ورفاقه ، ترجمة : فؤاد حمودة ، ص ٤٤.

تستأصل واحدا من أخطر التقاليد واطولها عمرا : العائلة ، حيث تتحول المراة الى زوجة ، وام ، وربة بيت ..

– ٧ –

ترى – مرة اخرى – هل قدرت التجربة على تحقيق النبوءة التي طرحها البيان الشيوعي في منتصف القرن الماضي ؟

ان كوستلر يحدثنا ، في مكان اخر من مذكراته عن تجربته الشيوعية ، يحدثنا كيف منيت النبوءة بالسقوط ، وكيف ان المنظرين حاولوا تبرير السقوط باساليبهم التي تعرف كيف تلعب على حتميات النظرية الماركسية وهي تتراجع امام الحتميات الاصيلة في الواقع البشري: تميز المراة ، وظاهرة العائلة كمؤسسة اجتماعية.

((كان الدافع الجنسي – يقول كوستلر – مقررا ومعترفا به ، الا اننا كنا في حيرة بشانه ، كان الاقتصار على زوجة واحدة ، بل كان نظام الاسرة كله عندنا اثرا من آثار النظام البورجوازي ينبغي نبذه لانه لا ينمي الا الفردية والنفاق والاتجاه الى اعتزال الصراع الطبقي ، بينما الزواج البورجوازي لم يكن في نظرنا الا شكلا من اشكال البغاء يحظى برضاء المجتمع ومواقفته. الا ان السفاح والاتصال الجنسي العابر كان يعتبر ايضا غير مقبول ، وكان هذا النوع الاخير قد شاع وانتشر داخل الحزب سواء في روسيا او خارجها ، الى ان اعلن لينين تصريحه الشهير الذي يهاجم فيه نظرية (كاس الماء) ، النظرية التي تزعم ان العملية الجنسية ليست اكثر خطرا واثرا من عملية اطفاء العطش بكأس من الماء[٦]. من هذا نرى ان الفضيلة البورجوازية كانت تعتبر شيئا سيئا ، كما ان السفاح والاتصال الجنسي العابر كان سيئا كذلك ، اما الموقف الصائب الذي ينبغي ان نتخذه نحو هذا الدافع الجنسي فهو الفضيلة العمالية التي تتلخص في ان الانسان ينبغي له ان يتزوج ويخلص لزوجته وينجب ابناء عماليين.

((فاذا تساءلت : اليست هذه هي الفضيلة البورجوازية التي استنكرناها من قبل ؟ قيل لك : ان هذا التساؤل يدل على انك لا زلت تفكر بالطريقة الالية لا بالطريقة المنطقية الجدلية ، اذ ما هو الفرق بين البندقية في يد رجل الشرطة والبندقية في يد عضو الطبقة العاملة الثورية ؟ ان الفرق بين البندقية في يد رجل الشرطة والبندقية في يد عضو الطبقة العاملة الثورية ان رجل الشرطة من اعوان الطبقة الحاكمة ، وبندقيته اداة للعدوان ، بينما هذه البندقية نفسها في

---

(٦) كان الدكتور ولهم رايخ ، وهو رجل ماركسي من اتباع فرويد ومؤسس معهد (السياسة الجنسية) قد اصدر تحت تأثير مالينوفسكي كتابا اسماه (وظيفة الشهوة الجنسية) شرح فيه النظرية التي تزعم ان الفشل الجنسي يسبب تعطيل الوعي السياسي لدى الطبقة العاملة وان هذه الطبقة لن تتمكن من تحقيق امكانياتها الثورية ورسالتها التاريخية الا باطلاق الحافز الجنسي دون حدود أو قيود.

يد عضو الطبقة العاملة الثورية اداة لتحرير الجماهير المضطهدة ، وهذا القول يصدق عن الفرق بين ما يسمونه (الفضيلة) البورجوازية وبين الفضيلة العمالية. ان نظام الزواج الذي يعتبر في المجتمع الراسمالي مظهرا للفساد والتحلل ، يتحول (منطقيا) الى عكس ذلك في المجتمع العمالي السليم ، فهل فهمت ايها الرفيق ام تحب ان اعيد جوابي بطريقة (محكمة) اكثر من هذه ؟))[٧].

– ٨ –

ويجد المرء نفسه مضطرا للمقارنة بين النظريات الوضعية التي تقوم على الاهواء والظنون فترتطم بالواقع والتاريخ والانسان ، وبين العقيدة الاسلامية القائمة على العلم الالهي الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي يعرف كيف يتطابق باعجاز مع الواقع والتاريخ والانسان فلا يكون ثمة تراجع او ارتطام.

ذلك بعض ما قالته الماركسية – اللينينية عن الانثى والعائلة وتنظيم الدافع الجنسي ، اما ما قاله الاسلام فلا يكاد يجهله احد ..

فمن الذي يرتضي استبدال الذي هو ادنى بالذي هو خير ؟ من ؟

(٧) المرجع السابق ، ص ٥٧–٥٨.

سخف الفلسفية الوضعية

– ١ –

للوهلة الاولى ، ومن خلال الالغاز والمعميات التي تعتمدها الفلسفات الغربية الوضعية[٨] ، وتحيط نفسها بها .. من خلال حملات الاكبار والتقدير التي انصبت على شخصيات الفلاسفة من كل مكان .. من خلال مركب نقصنا الحضاري الذي خيل الينا كما لو كان الفيلسوف الغربي انسانا غير عادي ، انسانا ذا قامة مرتفعة وفكر خلاق يجتاز المغاليق ، ورؤية للكون والحياة لا تقبل خطأ على الاطلاق ..

– ٢ –

للوهلة الاولى تتبدى الفلسفات الغربية للمرء بحجم اكبر بكثير من حجمها الحقيقي وبريق يكاد يسلب العين القدرة على الابصار.

وكلنا نذكر ما كان يفعله مدرسونا في الاعداديات وهم يحكون لنا عن هذا الفيلسوف الغربي او ذاك من خلال مادة (التاريخ الاوروبي) .. بوجل وانكماش .. بتقدير مبالغ فيه يصل حد التضاؤل والصغار ، ونذكر كذلك طبقة من الاساتذة الجامعيين اعمق ثقافة من المدرسين واكثر تخصصا ، كانت هي الاخرى تحدثنا عن الفلسفة الغربية كما لو كانت حقا مطلقا لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ..

ولا زلت اذكر مدرس التاريخ في الاعدادية ، وهو يخطو بحذر وتريث خلال شرحه لفقرات في الكتاب خصصت للفيلسوف الالماني (هيغل) ولفلسفته المثالية ، وكنا نحن نقول في انفسنا : اذا كان مدرس المادة غير قدير على اقتحام بحر (هيغل) العميق فانى لنا ان نجتازه بعقلياتنا الساذجة وثقافتنا المتواضعة ؟

ولا زلت اذكر كذلك أستاذ الفلسفة في كلية التربية وهو يحدثنا عن الفلسفة المثالية لهيغل ، كيف انه اراد ان يعطينا جانبا من فلسفته كما لو كانت مسلمات مطلقة ، ولكنها مسلمات غامضة ، معماة ، ما كانت تزيد الرجل وفلسفته في نفوسنا الا اجلالا واكبارا !!

(٨) نعتمد هنا المدلول اللغوي لا الاصطلاحي للكلمة والمقصود الفلسفات التي هي من وضع البشر.

– ٣ –

وما كان الامر بهذا الذي تصورناه او صور لنا ، وما هكذا يجب ان يكون .. فان المثقف المسلم على وجه التحديد ، ناهيك عن المتخصصين منهم ، يتحتم ان يمتلك ابتداء .. نعم (ابتداء) .. ما يمكن تسميته بالنظرة الفوقية المستقلة الواثقة التي ينظر بها ويقيس ويزن كل ما يقوله العقل البشري شرقيا كان ام غربيا ، ولا يسلم بسهولة حتى لو طرحه اعظم الفلاسفة والمفكرين .. كما انه يتحتم الا يشعر ازاءه بأي قدر من النقص او الاعجاب المفرط الذي قد يجنح به بعيدا عن الموقف العلمي الذي يتطلبه منه هذا الدين.

إن المسلم ينظر بنور الله ، ويعاين الاشياء بتعاليم الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ويزن بموازين الكتاب الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فكيف تسوغ له نفسه ان ينزل عن موقعه العالي هذا ، عن استشرافه من الافاق المفتوحة ، الى الحفر الضيقة والمسالك المتداخلة والشعاب المسدودة لفكر هذا الرجل او ذاك مما قد يتضمن الكثير من الخطأ والانحراف والفساد ؟

– ٤ –

وثمة بداهة قد نغفل عنها لوضوحها في كثير من الاحيان ، فان الفلسفة الوضعية لو كانت حقا مطلقا كما صور لنا وخيل الينا ، لما نقض بعضها بعضا ، وهاجم بعضها بعضا ، ونفى بعضها بعضا .. ولما شهدت ساحات الفكر والثقافة عشرات ، بل مئات والوفا ، من الفلاسفة كان يحلو لكل واحد منهم ان يطرح ادعاء تقليديا اصبح بمثابة القاعدة التي يحذو حذوها الجميع : ان ما تقوله فلسفته هو الحق المطلق ، وان ما وراءها من فلسفات لا يعدو ان يكون خدعة وضلالا ، او هو – على احسن الاحوال – محاولات تتضمن الكثير من الشروخ والاخطاء ..

– ٥ –

في كتاب الأديب الفرنسي (اندريه موروا) عن حياة الروائي الروسي الشهير (ايفان تورجنيف) نقرأ هذا المقطع : ((في غضون السنوات التي امضاها تورجنيف في المانيا كان هيغل الفيلسوف الذي يلتف حوله المثقفون الروس لانه كان يقول بان كل ما هو حقيقي نابع من العقل في الوقت الذي كان فيه هؤلاء يقبلون المجتمع كما وضعه التاريخ . ذلك ان الناس يطلبون دائما من كل مذهب ان يكون دليلا عقليا على مشاعرهم واعمالهم !!

فالشباب الروسي الذي كان يخضع في سنة (١٨٤٠م) للقيصر كان يعرف انه مستبد ولكنه كان يعبده على الرغم منه ، وهذا الشباب كان يتوهم بانه واجد في (فلسفة الحق) لهيغل

حججا واسانيد لتعليل خضوعه .. كانوا يقولون له ان الدولة كيان حي وهي كما اوجدها التاريخ ، ولا يستطيع فرد او مجموعة أن يغيرها تبعا لاهوائه. وهكذا لا يوجد مجال للمناقشة في ضرورة الطاعة المطلقة للقيصر فذلك امر واضح جلي في حد ذاته)).

ويمضي موروا الى القول بان ((تلك كانت نظرية هيغل كما راتها جماعة اليمين . على ان هرزن – الذي يمثل جماعة اليسار – كان يتبين انه يمكن ان يستمد من هيغل بالذات الدليل على شرعية كل مقاومة للاوتوقراطية اذ لو صح ان كل ما هو حقيقي نابع من العقل ، فالثوري – اذ يوجد – يعتبر جزءا من التاريخ (اذا كان العقل يعزز النظام الاجتماعي القائم ، فان كل مقاومة له ما دامت موجودة تعد معززة كذلك) . وهكذا تشكلت من فلسفة هيغل صورة اخرى اخذت بها جماعة اليسار))[٩].

– ٦ –

وهكذا استعملت فلسفة هيغل لتبرير موقف اليمين الخاضع للقيصر ولتبرير موقف اليسار الثائر على القيصر ..

وهذه الميوعة الفكرية التي نجدها هنا تتارجح ذات اليمين وذات الشمال لا تقتصر على فلسفة المثالية التي وصفها ماركس وانغلز بانها تمشي على راسها ، فحسب ، ولكنها تنسحب على الفلسفة المادية نفسها التي صاغها ماركس وانغلز . فانك واجد فيها ما يسوق الشيوعيين لمساندة وضع ما ، وواجد فيها – كذلك – ما يدفعهم الى الثورة عليه والاطاحة به ..

وهم يبررون هذا وذاك بانه (التكتيك) الذي يخدم الاستراتيجية في نهاية المطاف .

اقرأ – على سبيل المثال – ما يقوله الاديب المجري المعروف (ارثر كوستلر) الذي خبر الماركسية بانتمائه اليها السنين الطوال ، ثم ما لبث ان ارتد عنها بسبب ما وجده فيها من عيوب وتناقضات .. انه يقول ، فيما نحن بصدده : ((كانوا يلجأون ، احيانا ، الى نبذ الحقائق واغفالها بحيلة بسيطة تتلخص في وضع الكلمة بين قوسين واعطائها جوا من السخرية والمرارة (ماضي تروتسكي الثوري) ، الهذيان (الانساني) للصحافة (الحرة) .. الى آخره. وكان هذا الاسلوب لشدة املالـه يفعل في النفس فعل التنويم المغناطيسي. ان ساعة من هذا الهذيان (المنطقي الجدلي) كانت تدع الانسان لا يدري افتى هو ام فتاة ، وتجعله مستعدا لاعتناق اي منهما بمجرد ظهور الاخرى بين قوسين. لقد كنا على استعداد لان نؤمن بان الاشتراكيين هم (أ) اعداؤنا الحقيقيون (ب) حلفاؤنا الطبيعيون ، وان الدول الاشتراكية والدول الراسمالية

(٩) مطبوعات كتابي ، العدد ٥٥ ، ص ٢٦–٢٧ ، من المقدمة.

(أ) يمكنها ان تعيش مع بعضها بسلام ، (ب) لا يمكنها ان تعيش مع بعضها بسلام ، وان انغلز عندما قال انه لا يمكن قيام الاشتراكية في دولة بمفردها كان يعني عكس ذلك تماما . بل لقد تعلم الواحد منا ان يبرهن بالاستدلال المنطقي على ان كل من يخالفه في الراي هو عميل للفاشية لانه (أ) لمخالفته لك في الراي يساعد على تفتيت وحدة الحزب (ب) بعمله على تفتيت وحدة الحزب يساعد على انتصار الفاشية فهو اذن (حـ) من الناحية الموضوعية عميل للفاشية ولو كان من الناحية الشخصية قد تعرض للتعذيب في معسكرات الاعتقال على ايدي الفاشيين. ان كلمات (عميل) او (الديمقراطية) او (الحرية) الخ .. كانت تعني عندنا في الحزب شيئا اخر يختلف تماما عن معناها في الاستعمال العام ، بل كان معناها عندنا يتغير بعد كل تحول في سياسة الحزب ، فكان موقفنا من هذه التغييرات كموقف اللاعبين في لعبة الكروكي (التي يقوم اللاعبون فيها بضرب كرات من خشب بمضارب في ايديهم لكي تمر من اطواق خشبية ثابتة) ، بين الملكة واتباعها حيث كانت الاطواق تنتقل عبر الملعب ، والكرات قنافذ حية ، مع اختلاف واحد هو ان اللاعب عندنا اذا اخطأ واضاع دوره وقالت الملكة (اقطعوا رأسه) كان الامر ينفذ بكل جد))[١٠].

– ٧ –

ان هذا التميع في الموقف ازاء الحقائق ، واتخاذ زوايا نظر مختلفة ، بل متضادة يذكرنا بموقف القادة الماركسيين من مسالة الجنس والزواج ، فيما تناولناه بشيء من التفصيل في مكان اخر ، فقد اعتبروه في البدء رذيلة بورجوازية تصديقا لما قاله ماركس وانغلز ، ثم لما شاع الزنا في الاتحاد السوفييتي عبر سني تأسيسه الاولى ، وفاض الكاس ، واعلن لينين تصريحه الشهير الذي هاجم فيه هذا التصور وحث على العودة الى الزواج كافضل صيغة للعلاقات الجنسية ، عاد الماركسيون فاكدوا ضرورة (الزواج) كمؤسسة محتومة في العلاقات الاجتماعية.

فاذا تساءلت ، يقول كوستلر ، ((اليست هذه هي الفضيلة البورجوازية التي استنكرناها من قبل ؟)) قيل لك ((ان هذا التساؤل ايها الرفيق يدل على انك لا زلت تفكر بالطريقة الالية لا بالطريقة المنطقية الجدلية ، اذ ما هو الفرق بين البندقية في يد رجل الشرطة والبندقية في يد عضو الطبقة العاملة الثورية ؟ ان الفرق بين البندقية في يد الرجل الشرطة والبندقية في يد عضو الطبقة العاملة الثورية ، هو ان رجل الشرطة من اعوان الطبقة الحاكمة وبندقيته اداة للعدوان ، بينما هذه البندقية نفسها في يد عضو الطبقة العاملة الثورية اداة لتحرير الجماهير

(١٠) الصنم الذي هوى ، ترجمة : فؤاد حمودة ، ص ٥٨–٥٩ (دمشق–١٩٦٠).

المضطهدة. وهذا القول يصدق عن الفرق بين ما يسمونه (الفضيلة) البورجوازية وبين الفضيلة العمالية. ان نظام الزواج الذي يعتبر في المجتمع الراسمالي مظهرا من مظاهر الفساد والتحلل يتحول (منطقيا) الى عكس ذلك في المجتمع العمالي السليم ، فهل فهمت أيها الرفيق ام تحب ان اعيد جوابي بطريقة محكمة اكثر من هذه ؟))[١١].

– ٨ –

ويتذكر المرء الآية القرآنية الكريمة : ((**إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى**))[١٢] فكانها قد تنزلت لكي تدمغ هذه الظنون والاهواء البشرية .. فما يلبث الا ان يزداد اعتدادا بموقفه الايماني واعتزازا بعلمه الالهي وموقعه الفوقي الذي يمنحه – بالتصور العقيدي المتكامل – السيادة على العالمين !

(١١) المرجع السابق ، ص ٥٧–٥٨.

(١٢) سورة النجم ، (الآية ٢٣).

العقدة السوداء

– ١ –

تـتحكم بالعقـل والوجـدان الغـربيين عقـدة سـوداء لا يـدري المـرء متـى تنحـل خيوطهـا المتشابكة ، وتزول.

انها كراهية كل ما يمس الاسلام والمسلمين ..

طبعا هنالك استثناءات عديدة ، ولكن الاستثناء – كما يقول المثل – يؤكد القاعدة ولا ينفيها ..

مـا الـذي حـدث لكـي يحكـم اديـب ايطـالي متنـور كـدانتي علـى محمد (عليـه الصـلاة والسلام) وعلي ابي طالب (كرم الله وجهه) بان يكونا في الطابق الاسفل من جحيمه ؟

يجيب الاديب المتنور : لانهما لم يستطيعا ان يكونا قسين !

ولا يمكن للمرء الذي يملك شيئا من القدرة على التفكير ان يصدق بان دانتي كان مقتنعا بهذا السبب الغريب.

– ٢ –

مـا الـذي حـدث لكـي يتقـدم المفكـر والاديـب الفرنسـي المعـروف فـولتير ، الـذي علمنـا في المدارس بانه احد اقطاب الفكر الحر المتنور الذي قاد الى الثورة الفرنسية ، يتقدم باحد كتبه الى البابا ، راكعا امامه ، مقبلا قدميه الكريمتين ، صابا على الرسول الشريف (صلى الله عليه وسلم) سيلا من الشتائم التي يربأ الذوق عن مجرد نقلها والاشارة اليها ؟

ومع ذلك نرى ان من الضروري الرجوع الى (القصة) من بدايتها عل صورة فولتير داعية الحرية تهتز قليلا في اذهان المعجبين !

في عام (١٧٤٢م) كتب فولتير مسرحية بعنوان (محمد) اعلن فيها ((ان محمدا ولد اميرا واستدعي لتسنم مقاليد الامور عن طريق اختيار الناس له. ولو انه وضع قوانين سليمة ودافع عن بلاده وصد اعداءه لكان من الممكن احترامه وتبجيله ولكن عندما يقوم راعي ابل بثورة ويزعم انه كلم جبريل وانه تلقى هذا الكتاب غير المفهوم الذي تطالع في كل صفحة منه خرقا للتفكير المتزن ، حيث يقتل الرجال وتخطف النساء لحملهن على الايمان بهذا الكتاب ، مثل هذا السلوك لا يمكن ان يدافع عنه الانسان ما لم تكن الخرافات قد خنقت فيه نور الطبيعة. ان محمدا كان

يشن الحرب على البلاد ويتجرا على ذلك باسم الله ، وليس مثل هذا الانسان قادرا على فعل اي شيء))[١٣].

وفي كتاب آخر له بعنوان (رسالة حول الاخلاق) يؤكد فولتير ((ان دين محمد لا يحتوي على شيء جديد سوى عبارة محمد رسول الله))[١٤].

ويذكر توفيق الحكيم في كتابه المعروف (تحت شمس الفكر) ان فولتير عندما ألف مسرحيته عن (محمد) (صلى الله عليه وسلم) وقدمها هدية الى البابا جاء في هذا الاهداء بالحرف الواحد ((فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من اشد الناس اعجابا بالفضيلة ، اذ تجرا فقدم الى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية. والى من – غير وكيل رب السلام والحقيقة – استطيع ان اتوجه بنقد قسوة نبي كاذب واغلاطه ؟ فلتاذن لي قداستك في ان اضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه ، وان اجرا على سؤالك الحماية والبركة واني مع الاجلال العميق اجثو واقبل قدميك القدسيتين : فولتير : ١٧ اب ١٧٤٥))

وعلمت – يقول الحكيم – ان جان جاك روسو كان يتناول بالنقد اعمال فولتير التمثيلية، فاطلعت على ما قال في قصة (محمد) علني اجد ما يرد الحق الى نصابه فلم ار هذا المفكر الحر يدفع عن محمد ما الصق به كذبا ، وكأن الامر لا يعنيه ، وكان ما قيل في هذا النبي لا غبار عليه ولا حرج فيه ولم يتعرض للقصة الا من حيث هي ادب وفن))[١٥].

– ٣ –

وجان جاك روسو ، هو الاخر بطل من ابطال الحرية والتنور ، وواحد من دعاة الثورة ضد التعصب والخرافة ، هكذا حاول معلمونا ، في المدارس الابتدائية والاعدادية وحتى في الجامعة .. وهكذا حاولت المناهج التي افرغت في عقولنا هناك .. ان نتصوره ونتقبله كحقيقة نهائية مسلم بها.

---

(١٣) عن مجلة البلاغ الكويتية ، عدد ٥٨ ، ص ١٢.

(١٤) عن مجلة البلاغ الكويتية ، عدد ٥٨ ، ص ١٢.

(١٥) الصفحات ١٨–٢٠ من الكتاب المذكور.

– ٤ –

ما الذي حدث لكي يندفع سيل من المبشرين ورجال اللاهوت والمستشرقين والمفكرين العلمانيين والماديين ، فيمضون في الطريق ذاته وهم ينثرون احقادهم واتهاماتهم وشتائمهم ذات اليمين وذات الشمال ؟

وها كم ((بعضهم)) ..

لورنس براون ((اذا اتحد المسلمون في امبروطورية عربية امكن ان يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، وامكن ان يصبحوا نعمة له ايضا ، اما اذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تاثير)).

القس كالهون سيمون ((ان الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السود وتساعدهم على التخلص من السيطرة الاوروبية ولذلك كان التبشير عاملا مهما في كسر شوكة هذه الحركات وذلك لان التبشير يعمل على اظهار الاوروبيين في نور جديد جذاب ، وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها)).

و. س . نلسون ((لقد اخضع سيف الاسلام شعوب افريقيا واسيا شعبا بعد شعب)).

المسيو كيمون ((ان الواجب تدمير خمس المسلمين والحكم على الباقين بالاشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر .. وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشري ، اليس كذلك ؟)).

جابريل هانوتو (معلقا) : ((لقد غاب عن خاطر المسيو كيمون انه يوجد نحو مائة وثلاثين مليونا من المسلمين وان من الجائز ان يهب هؤلاء المجانين للدفاع عن انفسهم والذود عن حمى دينهم))[١٦]. اديسن ((محمد لم يستطع فهم النصرانية ولذلك لم يكن في خياله منها الا صورا مشوهة بنى عليها دينه الذي جاء به للعرب)).

هنري جيسب ((المسلمون لا يفهمون الاديان ولا يقدرونها قدرها .. انهم لصوص، وقتلة ، ومتأخرون ، وان التبشير سيعمل على تمدينهم)) ..

– ٥ –

لو ان الامر اقتصر على رجل الدين الغربي ، مبشرا او لاهوتيا ، لتبينت الاسباب ، ولو انه اقتصر على الشخصيات الرسمية في اوروبا وامريكا لتبينت الاسباب كذلك ، ولكنه امتد الى دوائر المثقفين كافة ، فضلا عن الاميين ، فاذا بهؤلاء جميعا يقفون الموقف ذاته : مؤمنهم

---

(١٦) توفيق الحكيم : تحت شمس الفكر ، ص ٢٣–٢٤.

وملحدهم ، علمانيهم وماديهم ، كاثوليكيهم وارثذوكسيهم وبروتستانتيهم .. ويهوديهم بطبيعة الحال!

فلو اننا عدنا الى ما كتبه هؤلاء او قالوه لوجدناه يتارجح بين حدين لكنه لا يتجاوزهما بحال من الاحوال : حد الشتائم المبتذلة والسباب الرخيص ، والاتهامات التي لا تسندها حجة او برهان.

وحد الطعن الماكر المتلفع برداء العلمية والموضوعية والمنهجية.

ولكن الحدين يمتحان من بؤرة واحدة ويصبان في بحر واحد.

فسواء قرأت لمبشر يتحدث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، او لمستشرق يكتب عن صحابته الكرام ، او اديب يبدع مسرحية او رواية تمس الاسلام من قريب او بعيد ، او مفكر اقتصادي يحلل جانبا من النظام الاقتصادي للاسلام ، او سياسي يستعرض اوضاع هذه المنطقة او تلك من عالم الاسلام ، او عسكري يرسم الخطط والاساليب لمجابهة هذه الثورة او تلك من ثورات الشعوب الاسلامية .. فانك واجد النبرة نفسها ، تظهر حينا وتختفي احيانا ، لكن الايقاع يظل نفس الايقاع ، والدخان الاسود الذي يحجب عن العين الرؤية الموضوعية العادلة يظل نفس الدخان وان اختلفت درجات كثافته.

– ٦ –

وللوهلة الاولى يبدو ان ثمة فارقا كبيرا بين ما قاله دانتي او فولتير عن نبي الاسلام (عليه افضل الصلاة والسلام) ، وما كتبه بعد قرون عديدة مستشرقون كبرنارد لويس او غب او – حتى – مونتغمري وات ..

ولكن بالتحليل المتأني للمعطيات نستطيع ان نضع أيدينا على الخيوط المتشابهة لدى هذا الرجل او ذاك على اختلاف الاماكن والازمان.

وتكون الحقيقة الخالصة هي الضحية ، تارة بالاندفاع الاهوج وتارة اخرى بالمناهج الماكرة الخبيثة ..

ويكون المسلم الذي لا يتحصن ضد هذا الوباء المتاصل ، بما فيه الكفاية ، ضحية اخرى كذلك ..

وما اكثر الضحايا الذين شهدتهم هذه المعركة الشرسة التي ظل العقل الغربي يشنها علينا ولا يزال ..

بل ان بعض أبنائنا وإخواننا انفسهم يعودون من هناك وهم يحملون الجراثيم ذاتها ، فيتولون بانفسهم كبر المهمة التي زرعها في عقولهم – بدهاء – اساتذتهم هناك ..

ومن عجب انه حتى المفكرين الماديين الذين قطعوا علاقاتهم الفكرية والعاطفية بكل ما يمت للدين والايمان بصلة ، هؤلاء ايضا يحملون الكراهية التاريخية للاسلام والمسلمين .. وهم يؤكدون هذا في كتاباتهم حينا ، وفي ممارساتهم العملية وسياساتهم تجاه ابناء المنطقة الاسلامية حيناً آخر.

وبنظرة سريعة الى معطيات الفكر الماركسي ، والمادي عموما ، ازاء الاسلام ، وبنظرة سريعة اخرى تجاه ممارسات القيادات الماركسية تجاه عالم الاسلام ، يتبين المرء ان دوافع الحقد والكراهية ، ها هنا ، لا تقل عنفا وضراوة عنها هناك ، ان لم تفقها وتزيد عليها.

ويكفي ان نطالع النص التالي المعروف الذي كتبه الماركسيون الروس عن ظهور الاسلام لكي نعرف الظلمات التي يتخبطون فيها والدخان الاسود الذي يحجب الرؤية العلمية النقية للظواهر والاشياء .. ((فبعضهم يرى ان المجتمع العربي (في مكة والمدينة) شهد بداية تكوين مجتمع يمتلك الرقيق بينما يرى بيجو لفسكايا ان القرآن الكريم يشعر بتركز مرحلة ملكية الرقيق ويذهب مع بلاييف الى ان المرحلة الاقطاعية هي من اثار اتصال العرب بالشعوب الاخرى. هذا ويرى اخرون ان المجتمع الاقطاعي بدا بالتكون فعلا .. ومنهم من يرى ان الاسلام يلائم مصالح الطبقات المستغلة الجديدة من ملاك وارستقراطية الاقطاع مثل كليموفيج ومنهم من يراه في مصلحة ارستقراطية الرقيق في حين ان بعضهم ، مثل بلاييف ، يرى ان الاسلام المتمثل بالقرآن الكريم لا يلائم المصالح السياسية والاجتماعية للطبقات الحاكمة فلجا اصحابه الى الوضع في الحديث لتبرير الاستغلال الطبقي الجديد. وفي حين ان بعضهم يقول ان الارستقراطية وحدت القبائل العربية لتحقيق اغراضها ، يقول غيرهم ان القبائل كانت تتوثب للوحدة فجاء الاسلام موحدا يعبر عن ذلك التوثب. ويضطرب الموقف من نشاة الاسلام ذاته ، فبينما يدعي كليموفيج ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) واحد من عدة انبياء ظهروا وبشروا بالتوحيد وارادوا توحيد القبائل ، يذهب تولستوف الى نفي وجود النبي العربي ويعتبره شخصية اسطورية ، وبينما يعترف البعض بظهور الاسلام ، يذهب كليموفيج الى ان جزءا كبيرا منه ظهر فيما بعد ، في مصلحة الاقطاعيين ونسب اصله الى فعاليات معجزة لمحمد . وتجاوز تولستوف الى ان الاسلام نشأ من اسطورة صنعت في فترة الخلافة لمصلحة الطبقة الحاكمة ، وهي اسطورة مستمدة من اعتقادات سابقة تسمى الحنيفية))[١٧]!!

(١٧) د. عبد العزيز الدوري ورفاقه : تفسير التاريخ ، ص ١٥–١٦ (مكتبة النهضة ، بغداد – ؟).

– ٨ –

ما الذي حدث لكي يتلقى الاسلام نبيا وعقيدة وتشريعا وتاريخاً وحضارة وشعوباً ودولا ، كل هذه الرشقات من الدخان ؟ الم يان الاوان في عصر التفوق العلمي والاتصال المدهش بين الامم والثقافات لكي يراجع العقل الغربي حسابه ويتخذ موقفا اقرب الى روح هذا العصر واكثر انسجاما مع معطياته ؟

غياب البديل

– ١ –

قد يكسب مذهب ما قوته وقدرته على الانتشار والكسب ، لا من مزايا خاصة يتصف بها ، ولا من معطيات مكتملة تمتلك القدرة على الاقناع باعتبارها حقائق مطلقة .. ولكن من تفرده في الساحة وانعدام البديل او غيابه ، وربما من كون هذا البديل يتميز بقدر كبير من الضعف والتهافت والارتطام بقناعات الانسان في مرحلة ما من مراحل التاريخ.

هذا هو واحد من الاسباب التي مكنت للماركسية في اوروبا ، وجعلتها ، فترة من الزمن، امتدت بخاصة فيما بين عشرينيات وثلاثينيات هذا القرن ، بمثابة العقيدة المتفردة في الساحة الاوربية ، ونقطة الجذب ذات البريق المثير ، والكعبة التي كان معظم المثقفين : مفكرين وفنانين وادباء ، يجدون انفسهم مسوقين للحج اليها !

– ٢ –

لم يكن هناك بديل يوازيها في القوة ، والجذب ، والقدرة على الاقناع ، كان يسود اوروبا – ولا يزال – فراغ مخيف ، دفع بحشود من الباحثين الى ما يمكن تسميته بمحاولة الامتلاء او التوازن النفسي من خلال الانتماء .. يهرعون لربط مصائرهم بالماركسية نظرية وتطبيقا ..

المسيحية ؟ أبداً ما كانت بقادرة على ان تملا ولو جانبا ضيقا من الحيز الكبير الذي غطى على اوروبا من اقصاها الى اقصاها ..

الديمقراطية ؟ ! كانت هذه رداء فضفاضا يتسع لكل شيء ، ولكنها لا تملك اي تميز ، وما كانت خطوطها المتميعة الباهتة لترسم للعقل البشري معمارا صارما ذا ابعاد مرئية ، بعشر معشار ما تفعله الماركسية.

الاشتراكيات الوطنية ؟ نعم لقد كانت تملك قدرتها على الجذب من خلال نزعتها القومية الاصيلة المتطرفة ذات البريق ، لكنها كانت قد حكمت على نفسها بالاعتقال في الحيز المكاني والبشري الضيق بسبب من عرقيتها وعدوانيتها ..

المذاهب والفلسفات الاخرى ؟ ما كانت تعدو ان تكون ترفا فكريا لا يمس اشواق الانسان ولا يلبي حاجاته التاريخية ..

الماركسية وحدها في الميدان ، وليس ثمة سوى بدائل ما كانت بقامتها ولا قدرت على ان تسامتها في القدرة على الجذب والتاثير ..

فها هنا العالمية ، والانسان ، والمظلومون ، وقوانين التاريخ التقدمية كما كانت تدعي.. وهناك العرقية والاستغلال والبورجوازية والرجعية ..

الى آخره مما كانت تتهم به بالحاح عجيب من المراكز الماركسية نفسها ..

– ٣ –

هكذا كان المثقف الاوروبي يجد نفسه منجذبا ، بهذا الدافع او ذاك للانتماء الى هذه العقيدة ذات السحر العجيب ..

بل لقد حدث يومها – في العشرينيات والثلاثينيات – ما هو اكثر من هذا : اتهام المثقف الغربي الذي لا يهرع للانتماء الى الماركسية ، بالتخلف والرجعية والجمود .. بتحوله الى اداة تستخدمها الطبقات المستغلة ضد الكادحين والانسان وقوانين التاريخ ..

كان مجرد هذه التهمة التي يتصادى معها احساس معذب لدى اولئك الذين لا يقدرون على تحمل عبئها المبهظ ، يسوق هؤلاء الى ما يعتبرونه توحدا وخلاصا .. دفاعا عن الاسم والكرامة .. اختيار الموقع الاكثر علمية واخلاقية ، وانسجاما مع مواقعهم المتقدمة كادباء وفنانين ومفكرين ..

حتى اذا ما بلغ احدهم اعماق التجربة ، وخبر بنفسه تناقضاتها ومظالمها وكذب ادعاءاتها واخطائها العلمية والاخلاقية .. رآها وسمعها ولمسها .. وادرك في نهاية الامر انها لا تنسجم بحال من الاحوال مع وضعه كمفكر او اديب او قناعته كانسان حساس ، مثقف ، مسؤول ..

لم يجد الطريق مفتوحا بسهولة للتراجع عن انتمائه ، لم يجده مفتوحا ان على مستوى الفكر او الاحساس ، او على مستوى الواقع والممارسة ..

يرجع الى اين ؟ وليس ثمة بديل على الاطلاق يمنحه التوازن والامتلاء اللذين تحقق بهما هناك ؟

ان الاحساس الذي كان ينتابه في لحظة التفكير بالخروج شبيه الى حد ما بذلك الذي يأخذ بخناق من يهوي من الوجود الى العدم .. من ينفى من العالم الى الفراغ والضياع .. من يطرد من الفردوس المشتهى ..

– ٤ –

وارثر كوستلر ، احد الذين ذاقوا التجربة وذاقوا معها مرارات الاخطاء والمظالم والتناقضات ، يحدثنا عن هذا الاحساس فيقول : ((.. لم يعد من الممكن لشيء ان يقلق امننا وسلامنا الداخلي الا الخوف من ان نفقد هذه العقيدة فنفقد معها كل ما يجعل للحياة قيمة ،

ونعود الى الظلام الدامس من جديد حيث لا نرى الا العويل والزئير. ولعل في هذا تفسيرا لموقف الشيوعيين الذين لا يزالون يجدون الايمان في قلوبهم رغم ان لهم عيونا ترى وعقولا تفكر)). ويقول في مكان اخر من مذكراته ((ان عليك ان تقوم بدورك في اللعب ، تؤكد وتنكر ، وتفضح وتتراجع ، وتاكل ما تقول وتلعق ما تقيء ، كان هذا الثمن الذي يلزم ان تدفعه كي يسمح لك بان تشعر انك لا زلت ذا فائدة ، وبهذا تبقي على احترامك لنفسك عن هذا الطريق المنكوس))[١٨].

وهو يسمي نقاط الجذب الخادعة في العقيدة الماركسية بالخمور الفكرية ، ويعتبر الوقوع في اسارها مرضا وادمانا وجبنا عقليا ((لقد كان تمسكي باخر خيط من هذا الوهم البالي – يقول الرجل – نموذجا للجبن العقلي الذي لا يزال مسيطرا على اليساريين. ان الادمان والانعكاف على الاسطورة السوفييتية مرض متشبث وعصي على العلاج كاي ادمان اخر ، ولا يكاد الانسان يهبط من الفردوس حتى يعاوده الاغراء بان يتذوق منها ولو نقطة واحدة ، ولو كانت مغشوشة بالماء وتباع تحت اسم اخر. ولن يعدم الانسان ان يجد في سوق (الشيوعية الدولية) السوداء عددا من الاسماء والعناوين الجديدة للمبادىء القديمة. ان هذه الشيوعية تتاجر في العناوين والشعارات كما يتاجر مروجو الخمور الممنوعة في انواعها الزائفة المقلدة ، وكلما كان العميل اقرب الى السذاجة ، سهل عليه ان يصبح ضحية لانواع الخمور الفكرية التي تباع تحت عناوين (السلام) و(الديمقراطية) و(التقدم) وما شئت من هذه التسميات))[١٩].

– ٥ –

ويستنتج كوستلر ((بان الاقلية الضئيلة فقط في كل عصر وفي كل عقيدة هي التي تستطيع ان تعرض نفسها للطرد والحرمان وتقضي على عواطفها في سبيل الحقيقة المجردة))[٢٠].

وقد كان كوستلر نفسه واحدا من هذه الاقلية ، اما الاكثرية الساحقة فقد استمرت تمارس جبنها العقلي وادمانها.

ذلك انه ليس ثمة بديل قد يمنح الخارجين القناعات الكافية لتبرير وجود اي منهم كمثقف وكانسان ..

---

(١٨) الصنم الذي هوى ، ترجمة : فؤاد حمودة ، (دمشق–١٩٦٠م) (الصفحات : ٢٩ ، ٨٠–٨١ ، ٩١).

(١٩) المرجع والصفحات نفسها.

(٢٠) المرجع والصفحات نفسها.

ومع ذلك فان محاولات الخروج قد ازدادت طردا مع الايام ليس بسبب من توافر البديل ولكن لتزايد التناقضات التي شهدتها التجربة والتي لم تعد تغري بالبقاء ، حتى بالنسبة لاولئك الجبناء ، او المدمنين !

ثمة حالات قليلة واستثنائية كان المثقف الغربي يحظى فيها بالبديل المرتجى الذي يمنحه القناعة والمبرر والتوازن باكثر مما فعلته الماركسية.

بعض هؤلاء التقوا به عبر سني البحث فعانقوه قبل ان يقعوا في مصيدة الاغواء الماركسي ، وبعضهم تمرد على الاغواء وهرعوا لكي يجدوا مصيرهم هناك.

ان ليوبولد فايس يقدم لنا نموذجا للحالة الاولى ، وروجيه غارودي للحالة الثانية . وكلاهما يملك عقلا كبيرا ويمثل ، باتساع ثقافته وتنوع خبرته ، حصيلة الثقافة الغربية العميقة وغنى خبراتها .. ومعنى ذلك ان هذه الثقافة لم تجد في مكوناتها الخاصة بها ، على ازدحامها وكثافتها ، ما يمنح بعض العقول الكبيرة القناعة والتوازن واليقين .. بالعكس ، فان هذا الغنى الثقافي ليكشف اكثر فاكثر ضرورة ان تكون هناك قاعدة اساسية تنبثق عنها هذه الثقافة .. عقيدة شاملة بعبارة اخرى .. فالثقافة وحدها لا تكفي ، وهي تميل اذا لم تستند الى ارضية عقيدية او رؤية شمولية مقنعة ، لان تتبعثر وتتشتت وتجر معها الانسان الى التبعثر والتشتت.

– ٦ –

ومن خلال هذه المعاناة برزت على الساحة الغربية ظاهرة (اللاانتماء) التي حدثنا عنها الناقد البريطاني كولن ولسون في كتابيه المعروفين (اللامنتمي) و(سقوط الحضارة) فأطال الحديث. ان كبار المفكرين والفنانين والادباء والفلاسفة ، هناك لم يقدروا على التحقق الذاتي في اطار ثقافتهم تلك ، بل لم يجدوا اوليات التوازن واليقين في خضم هذه الثقافة المتلاطم، الكالح ، العميق.

وكانت مأساتهم تكمن في انهم كانوا يعون هذا الانفصال المحزن بين الانسان ، فردا ومجتمعا ، وبين ثقافته .. واذ اندفعت قيادات هذه الثقافة وقواعدها نحو نوع من الاندماج او النسيان – ربما – بسبب من تضاؤل وعيها بانعدام التوازن او التلاؤم بين الانسان الغربي وبين ارضيته الثقافية ، نجد بالمقابل ذلك التيار المضاد .. حشد من المثقفين الكبار يتمردون على ثقافة بلغت بهم شوطا من الطريق ، وهم يريدون ان يواصلوا الرحلة صوب المصير فلا تقدر معطياتهم الثقافية على اعطائهم المزيد .. لقد امتلكوا العالم كما يقول كولن ولسون .. ثم ماذا بعد ؟

– ٧ –

ان الانسان بطبيعة تركيبه ذي النزوع الى الماورائيات يريد ان يتجاوز العالم الى الكون .. جدران المادية الى الروح .. الطبيعة الى ما ورائها .. السلطة الى الحرية .. انه يريد ان يكسر الاسوار وينطلق بحثا عن الإله المفقود !

بعبارة اخرى انهم يريدون العقيدة التي تلبي نزوعهم الكبير ، وان المرء ليلمس بوضوح هذا التوجه صوب العقيدة ليس فقط في كتب (ولسون) ولكن في معظم المؤلفات التي ابحر اصحابها في الطريق ذاته ، وحاولوا ان يعالجوا ازمة الوجود الثقافي الغربي على ضوء المصير المقفل ، والدرب المسدود !

– ٨ –

ومرة اخرى فاننا على ضوء هذه الازمة التي تعانيها الثقافة الغربية نستطيع ان ندرك لماذا توجه حشد من المثقفين عبر الربع الثاني من هذا القرن صوب الماركسية ، انه لم يكن توجها حرا بمعنى الكلمة ، ولكنه ارتماء المرهقين الباحثين عن الخلاص باية طريقة ومن خلال اي برنامج يمتلك رؤية عقيدية شاملة حتى ولو كان الذي يصوغها هو الشيطان.

لكن المشكلة التي سرعان ما تبدت لهؤلاء الذين ارتموا في احضان الماركسية انها هي الاخرى تمتح من البئر نفسه الذي يشكل ماؤه نسيج الثقافة الغربية وينفخ في عروقها.

الفلسفة المادية التي ترفض الغيب والروح ، وتتنكر للسماء ، وتقطع الطريق الى الجنة، وتحارب وجود الله ..

انها هي الاخرى تحجم الانسان ، وتحصره في النطاق الضيق ، وتغلق الابواب عليه لكي لا ينطلق صوب الافاق الرحبة التي تتجاوز حدود المنظور والملموس وتتأبى على نداءات الجنس وصرخات الامعاء ..

واذا كان ثمة فرق فانه في امتلاكها الرؤية الشمولية ، العقيدة او الفلسفة التي استهوت اولئك المثقفين ، لكن الجوهر هو الجوهر والنسيج هو النسيج ..

– ٩ –

فما ثمة من الارتداد كرة اخرى ، بحثا عن حل اكثر قبولا واقدر على تلبية طموح الانسان بما انه انسان لا حيوان اجتماعي ، ولا مجرد اداة ميكانيكية او رقم مضاف الى الشمال او اليمين.

حل يمكن المثقف الغربي من التحقق الذاتي المفقود ، واذا كانت الاكثرية القلقة لم تقدر لاسباب شتى ، ليس هذا مجال تحليلها او حتى الاشارة اليها ، على ان تجد طريقها صوب الهدف ، فان في اسلام ليوبولد فايس وغارودي اشارة مؤكدة على ان هناك من يقدر على الوصول ، وعلى ان رحلة البحث عن المصير المتفرد الموازي لحجم الانسان ، ستؤتي ثمارها باذن الله ..

ومعنى ذلك ان المستقبل كفيل بتقديم المزيد من هذه الحالات ، ومعنى ذلك ايضا ان الديل الاسلامي المتفرد قد يفرض وجوده في الساحة الاوروبية في يوم ما ، فلا تستاثر المادية بالساحة ، ولا تسوق خمورها الفكرية العقل الغربي الى الجبن والادمان !

رأيت الأسلام ولم أر مسلمين

– ١ –

في حوار مع صديق عائد من الغرب طرح هذا السؤال الذي كاد ان يصبح تقليديا : ما الذي يجعلهم يتفوقون علينا ؟

ان تقدمهم العلمي والتقني لا يكفي وحده للاجابة على السؤال ، فالذي يذهب الى هناك لا يتعامل فقط مع العلم والتقنية ولكنه يتعامل مع حشد كبير معقد متشابك من الممارسات والمعطيات ، فتناله الدهشة والاعجاب ليس لعلمهم وتقنيتهم المتقدمة فحسب ، لان هذا وذاك يجده منقولا في بلاده ، معمولا به هناك ، او ان يشهده – على الاقل – على الشاشات الصغيرة والكبيرة وعبر صفحات المجلات والجرائد وفصول الكتب ، ويسمع به ويتدارسه في اروقة الجامعات والمعاهد والاكاديميات.

الدهشة والاعجاب ينصبان على مساحة اوسع بكثير من العلم والتقنية .. على عموم تلك الممارسات والمعطيات التي تمتد وتنتشر في البيت والمدرسة والشارع والمؤسسة ، واماكن الترفيه .. الخ ..

– ٢ –

استطاع الحوار ان يقودنا الى تركيز المسالة بكلمتين هما : اخلاقية التحضر .. ذلك ما يتميز به الغرب وينال بواسطته الدهشة والاعجاب.

فالحضارة شيء واخلاقية التحضر شيء اخر ..

قد نتسلم معطيات حضارة بكاملها من اجيال سابقة كافحت لكي تصنعها وتنميها ، ولكننا لا نحسن التصرف بها فنسوقها إلى الانكماش والتدهور والسقوط ..

ذلك عندما نفتقد الشروط الاخلاقية للتعامل الحضاري ..

ان الذي يلحظه الذاهب الى هناك حشدا من الممارسات الجزئية ولكنها تشكل بمجموعها ، بل ان كلا منها ليشكل دلالة اخلاقية باتجاه التحضر.

مثلا : شوهد سائح الماني يستقل زورقا بخاريا في احدى البحيرات السويسرية ، اشتهى ان ياكل برتقالة واحتفظ بالقشور دون ان يرميها في مياه البحيرة الواسعة ، وعندما عاد الزورق لكي يستقر على الحافة هرع الرجل الى اقرب سلة للاوساخ فوضع القشور هناك.

اكثر من هذا ، ان السائح الاوروبي الذي يجتاز البحر المتوسط – على سبيل المثال – لا يجد من الذوق ان يرمي بالاوساخ في عرض البحر ، حتى لو كانت عقب سيكارة ، بل انه يحتفظ بها بعناية لكي يرميها في سلال الاوساخ المعلقة في اركان السفينة.

وشاهدت بعيني في احد شوارع مدينة عربية ، صاحب سيارة انيقة يسحب جيب الاوساخ من جوار المقود ويقلبه وسط شارع مزدحم ثم يمضي بسيارته الانيقة وبذلته – المستوردة – الاكثر اناقة ، كانه لم يفعل شيئا يخدش الذوق والحياء ..

– ٣ –

وحكى احد الدارسين هناك قال : اضطررت لايقاف سيارتي في مكان مخصص لوقوف السيارات. انجزت عملي وعدت بعد اكثر من ساعة لامتطي سيارتي وانطلق لانجاز اعمال اخرى، فاذا بي افاجأ بورقة ملصقة بالزجاج الامامي .. انزعجت قليلا ، وتوقعت ان اكون قد مارست مخالفة ما في ايقاف السيارة بهذا المكان ، ولكني عندما بدات اقرا الورقة تبين لي انها شيء اخر اتماما ، اعتذار رقيق للهجة ، يقول بالحرف الواحد ((اسف لانني ارتكبت خطأ بحقك، لقد كنت مسرعا اكثر مما يجب وانا استدير لاوقف سيارتي الى جوار سيارتك فتسببت في الحاق الاذى بدعامتها الخلفية ، انتظرتك اكثر من نصف الساعة فلما لم ترجع وكنت مرتبطا بعمل يتحتم انجازه تركت لك هذه الرسالة. وانني بانتظارك مساء اليوم على العنوان الذي تجده في نهاية رسالتي هذه. اتمنى ان تلبي طلبي لأتعرف عليك ولاقدم لك اعتذاري مرة اخرى . واذا اقتضى الامر تفرغت يوم غد لاصلاح ما افسدته بتسرعي .. محبتي وتمنياتي ...)).

ونحن الذين كتب عليهم ان يتحملوا عبء السيارة في البلدان النامية عليهم ان يتحملوا وحدهم مهمة حماية سياراتهم من العدوان .. الذي يملك لسانا اطول ويدا اقدر على الضرب ، ورجلا اشد دربة على الركل ، هو الذي يخرج من معركة التصادم بين السيارات منتصرا ، سواء كان الضارب ام المضروب.

وماذا احكي – قال محدثي – عن دقتهم في ضبط المواعيد وصدقهم في المعاملات ؟ عشرات بل مئات من الوقائع يلمسها الشرقي بيديه ويراها بعينيه عبر شهر او شهرين يقضيهما هناك ، فما كذب غربي يوما في معاملة ولا اخلف موعدا.

وعندنا ، تنتظر الرجل الذي تواعدت معه في الساعة الخامسة فلا ياتيك الا في السادسة ، وتبتاع ثلاثة كيلوات من الفاكهة فتضطر الى رمي نصفها في صندوق الاوساخ ، لا تجد سالما من العطب الا تلك التي كانت معروضة على السطح . وتتعامل مع الجهاز المصنع محليا ، فاذا بالفنيين والعمال قد نسوا برغيا هنا ولم يشدوه بشكل كامل هناك ، واذا بهم قد جعلوا

قاعدته اليمنى اطول قليلا من اليسرى ، لم يكلفوا انفسهم عناء ضبط القياس وجعل القاعدتين متساويتي الارتفاع .. وقد تجرحك بعض الاجهزة لان صانعيها لم يابهوا لضرورة صقل حافاتها ، وعلام ، ما دامت تؤدي غرضها ؟

طيب ! قال محدثي بعصبية وهو يضحك رغما عنه ، فلماذا لا يكلفون انفسهم – على الاقل – بوضع تحذير مكتوب على جانب من الجهاز يقول :

انه يجرح فتعامل معه برفق !!

– ٤ –

كثيرة هي ويلات عالم كان قد انتمى للاسلام يوما وتحقق بالاخلاقية التي رفعته الى القمة ، ومكنته من ان يكون متحضرا ، ومنحته السيادة على العالمين.

ولن يكون ألف مليون مسلم بقادرين اليوم على استعادة دورهم ذاك ما لم يسترجعوا اخلاقيتهم الضائعة التي منحهم اياها الاسلام.

قلت لصديقي : اتدري ؟ ان المأساة قد تكمن بكلمة أو كلمتين ((الاتقان والاحسان))..

قال هو لا يزال يلعق آلامه : لا افهم شيئا !

اجبته : انها واحدة من اشد الممارسات الاسلامية اصالة والزاما ، الم تسمع حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ((ان الله يحب اذا عمل احدكم عملا ان يتقنه)) .. فلو ان فنيينا وعمالنا التزموا هذا لما قدموا لك جهازا يجرح ولا يقدر على الوقوف مستويا على سوقه..

وكما ان المرء – كما تقول – يقدر على معاينة الف من الشواهد على اخلاقية الغربيين في مدى شهر او اسبوع واحد ، فانه يستطيع بسهولة ، عبر ساعة واحدة يتفرغ فيها لقراءة كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، او جانب منهما على الاقل ، ان يحظى بمئات الشواهد على ان الحياة الاسلامية لن تتحقق ما لم تستكمل شروطها الاخلاقية التي يتشبث بها الغربي ، يعض عليها بالنواجذ ، بينما الشرقي المسلم يكاد ينساها ، حتى كانه لا يعرف ما تعنيه على وجه التحديد.

– ٥ –

قال ، وملامح المرارة لا تزال تكسو وجهه : انا معك في هذا ، انهم هناك يضعون رزم الصحف والمجلات والكتب في الاكشاك المخصصة لها ، ويجيء هذا الرجل او ذاك فياخذ مجلة او جريدة ويضع ثمنها في مكانه المحدد ثم يمضي الى هدفه .. وفي بلداننا لا يامن احد ان يبقي على منضدته حفنة من الدراهم لانه سيعود فلا يجدها ، رغم ان سلوكا كهذا يمثل تناقضا صريحا مع جوهر الاسلام ، مع واحدة من اشد قيمه وضوحا والزاما.

صمت قليلا ريثما يسترجع بعض ذكرياته عن الغرب ، او يهرب اليها بعبارة أدق ، ثم واصل حديثه قائلا : دخلت احدى المكتبات العامة الكبيرة بحثا عن بعض المصادر والمراجع ، فلقيت من الترحيب والعناية ما يفوق الخيال ، واكتفيت بتقديم عناوين الكتب التي ابتغيها.

فخلال دقائق معدودات كانت امامي .. انهم يعتمدون احدث الطرائق التقنية في الخدمات المكتبية من اجل التسريع في توصيل المعلومات ونشر المعرفة وخدمة المثقفين .

– ٦ –

قلت له : على رسلك يا هذا ، فان ثمة سؤالا اودّ ان اطرحه عليك فهل ان تقييمك لخدماتهم المكتبية سببه التقنية المتقدمة وحدها ؟

أجاب : كلا ، بكل تاكيد ، وانما هي اخلاقية التعامل مع الجهاز التقني.

قلت : هذا ما أردت ان أصل اليه ، وما بدأت به حديثي .. تصور لو ان هذه الاجهزة المتقدمة اعتمدت في احدى البلدان النامية ، ولا اقول المتخلفة ، اكان بمقدورك ان تحظى من خلالها بهذا الذي حصلت عليه هناك ؟

أجاب : كلا !!

– لماذا ؟

– لان الالة وحدها لا تكفي ..

قلت : والانسان وحده لا يكفي ، وكلاهما لا يكفيان كذلك ، لا بد من التحقق بالعلاقة السليمة بين الطرفين .. لا بد من اخلاقية التحضر اولا واخيرا.

فلو عدنا الى مفردات هذه الاخلاقية وتطبيقاتها اليومية على ارض الواقع لوجدناها ، الا قلة منها لا تكاد تذكر ، مما دعا اليه الاسلام وحض عليه بل امر أتباعه بالتزامه وربط بعضه الاخر بمسألة الحلال والحرام.

إن حس النظافة ، والذوق ، والتأنق ، وكراهية القذارة والجفاء ، وانعدام الذوق او هبوطه، لمما اكد عليه الاسلام والح الحاحا شديدا لتحويله الى ممارسة يومية وواقع معيش.

ان القرآن الكريم يدعونا – مثلا – ان ناخذ زينتنا عند كل مسجد ((**يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**))[٢١] ، وينعى على الذين يحرمون تجميل الحياة وتزيينها ((**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ**

(٢١) سورة الاعراف ، (آية ٣١).

يَعْلَمُونَ))[٢٢] ، والرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) كان لا يغادر بيته الا متعطرا ، وكان يؤكد في احاديثه على ان للطريق العام حقوقا ، كما ان للانسان حقوقا ، منها اماطة الاذى ، بكل ما تتضمنه الكلمة من معنى.

– ٧ –

واحب ان اتوقف لحظات عند مسالة ترتبط بهذا كله ، وقد يسميها البعض في هذه الايام (اتيكيت) الطعام .. هل تدري ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قدم في سلوكه واقواله ازاء مسالة تناول الطعام ما يمكن اعتباره اشد الصيغ رقة وتهذبا في هذه الممارسة التي تتحول على ايدي البعض الى شيء مقرف تتقزز له بعض النفوس الرقيقة ؟

تفاصيل كاملة بالفعل والكلمة يريد الرسول (عليه السلام) ان يعلم بها أبناء أمته كيف يتناولون الطعام فيما لا تدانيه طرائق الغربيين انفسهم وفنونهم المعروفة في تناول الطعام.

وغير اتيكيت الطعام ، عشرات من تفاصيل سلوكنا اليومي ، اراد الاسلام ، بقرانه الكريم وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، ان يرسم لنا ازاءها المنهج المتحضر ، الذي ينبثق عن ركائز اخلاقية موغلة في نفس الانسان المسلم لانها مرتبطة الجذور بشيء اكبر بكثير واعمق بكثير : التقوى والاحسان !!

– ٨ –

فاذا كان الغربيون يمارسون مفردة (التأنق) تلك ، او ايا من المفردات الحضارية الاخرى ، بدافع من التقليد الحضاري او الاستمرارية او التعود ، فان الاسلام يمضي خطوة ابعد لكي يركزها في اعماق الانسان ويربطها بعقيدته وايمانه .. انه يغرس في عقل الانسان وشعوره الاحساس بالمسؤولية ، ويقظة الضمير ، والاستشعار الدائم لرقابة الله ، هناك حيث لا يبرر لنفسه البتة ممارسة اية صغيرة تخدش هذا الاحساس .. وغير هذه المفردة عشرات ، بل مئات من المفردات الاخرى التي تجعل الغربيين يتفوقون علينا ، ولن يكون استيراد تقنيتهم ونصبها في بلادنا حلا ان لم يرافقه التحقق باخلاقية التحضر التي دعانا اليها هذا الدين.

ولا ادري وانا اودع صديقي كيف تذكرت عبارة قالها احد العلماء المسلمين في اعقاب عودته من الغرب ، لا تدري جادا ام هازلا : لقد رايت الاسلام هناك ولكنني لم ار مسلمين !!

---

(٢٢) سورة الاعراف ، (آية ٣٢).

لعبة نقل المتاعب

– ١ –

في الشرق الاسلامي كثيرون ممن كلفوا انفسهم ، ولعلهم كلفوا ، بحمل اسفار المتاعب والعقد الحضارية المستعصية من عالم الغرب الى عالم الاسلام والادعاء بانها من صنع الاسلام.

ليس هذا فحسب ، بل انهم يضيفون عليها وينفخون فيها من اجل تضخيمها ومنحها حجما اكبر من حجمها الحقيقي مع اضافة بعض الاصباغ المحلية لكي تتحقق القناعة المطلوبة ويعتقد السذج من الناس بان هذا من صنع الاسلام ، او على الاقل من صنع المسلمين والبيئة الاسلامية.

– ٢ –

اننا نتذكر هنا – على سبيل المثال – نموذجا من عشرات بل من مئات والوف ، تلك الصحفية المصرية المعروفة وهي (تكافح) لمدى يقرب من نصف القرن من اجل تصوير المرأة الشرقية كما لو كانت تعاني من متاعب ومآس ومعضلات معقدة مستعصية متشابكة ، لا تعاني المرأة الغربية عشر معشارها ، بل لا تعاني منها على الاطلاق. بل انها – المرأة الغربية – يجب ان تتخذ مثلا اعلى يتحتم ان تحذو المرأة الشرقية حذوه اذا ما ارادت فعلا تحقيق النقلة المرجوة من الجحيم الى النعيم.

وكانت هذه الصحفية المثابرة التي سخرت لمحاولتها حشدا من الصحف والمجلات وحتى الكتاب والادباء ، تسعى الى تغطية المحاولة والالتفاف على مراميها الحقيقية بصيغ واساليب عدة ابرزها ولا ريب محاولة تعليق المعاناة القاسية للمرأة الشرقية على الرجل المسلم الجاهل ، ولكنها من وراء هذا التعليق كانت تشير باصبع الاتهام ، ومن طرف خفي ، الى الاسلام نفسه والبيئة الاسلامية التي صاغها هذا الدين.

– ٣ –

ومضت الصحفية المذكورة فيما اسمته معركة تحرير المرأة الى هدفها المرسوم دون كلل او ملل .. عقود عديدة والصحف المصرية ، وعدد من الصحف العربية تتصادى بالدعوة المترعة حماسا ، وتؤكد القول شهرا بشهر واسبوعا باسبوع ويوما بيوم ، حتى خيل للناس ، لكثرة

ما اعيد القول ولج في الطلب ، ان المرأة المسلمة تعاني فعلا من الويلات وانه قد ان الاوان لتخليصها وباسرع وقت مما تعانيه.

ولم يكن الامر صعبا اذا خلصت النية وصدق العزم ، فما على هذه المرأة سوى ان تنظر الى ما تفعله اختها في عالم الغرب فتحدو حذوه ، هناك حيث تسترد سعادتها الضائعة وكرامتها الممتهنة وحقها المسلوب.

والاصوات المخلصة التي نبهت الى خطورة اللعبة ، وخبثها ، بل الى خطأها ابتداء، كاد ان يطوى عليها ، واضطر بعضها فعلا الى ان يصمت ، اما اولئك الذين واصلوا المجابهة فان الصخب والضجيج الذي احاط بدعوى (الصحفية) غطى على اصواتهم فلم يعد يعرف ما الذي تريد ان تقول.

– ٤ –

وتدور الايام دورتها ، وتزداد قنوات الاتصال بالحياة الغربية قوة وسرعة وانتشارا ، ويعرف الشرقيون من خلال الصحف والمجلات والسينما والاذاعة والتليفزيون والدراسات والاعمال الادبية المترجمة ، كم تعاني المرأة الغربية هناك ، وكم تتعذب .. ويعرفون – كذلك – مقدار ما تتخبط فيه من مشاكل ومآس ومنغصات .. ثم هم يعرفون ان المرأة المسلمة ، على ماتعانيه من متاعب بسبب الرجل المسلم الجاهل ، لا الاسلام نفسه ، انما تحيا حالة اقرب الى انسانيتها ، وتكوينها ، ومطامحها ، من شقيقتها في الغرب بما لا يقبل قياسا !!

وتدور الايام دورتها فاذا باصوات قادمة من الغرب ، من نسوة غربيات عالمات ومتخصصات ، لا مجرد دعايات او مهرجات ، تشير بالحرف الواحد الى ان الهندسة الاسلامية لدور المرأة في العالم هي الهندسة الوحيدة المنسجمة باعجاز باهر مع تكوين المرأة ومطالبها، ورغائبها الجسدية والنفسية ، وان ما عداها ليس سوى الفوضى والتخبط والضلال وان حصيلته لن تكون سوى الشقاء الذي يلف المرأة الغربية رغم مايبدو ظاهرا من انها تعيش سعيدة ، ولكنه ليس سوى الديكور الذي يخفي وراءه الوجه القبيح.

– ٥ –

وتدور الأيام دورتها فاذا بعالم الغرب يشهد من الوقائع والاحداث في دائرة المرأة ، ما يؤكد صدق هذه المقولات جميعا ، فيتجاوز نطاق الجدل الى ساحة الرؤية المشهودة التي تحمل اقناعها المبين.

ونحن نعرف جميعا – على سبيل المثال فحسب – ماحدث في ايطاليا . فبعد كفاح دام اكثر من عقد من الزمن قدر البرلمان الايطالي ان ينتزع باغلبية ساحقة حق الطلاق بالنسبة

لطرفي المعادلة الزوجية : الرجل والمرأة ، واعتبرت الصحف اليسارية ذلك انتصارا كبيرا لقضية الانسان.

بينما كان (الطلاق) بالنسبة للصحفية اياها واحدا من الاهداف التي تسترت وراءها ، وظلت تصوب عليها اعيرتها النارية دون كلل او ملل لمدى ثلاثين او أربعين عاما !!

ترى ، ألا تزال هذه المرأة المثابرة تصر على استمرار الحرب ضد الطلاق ، الذي هو بمثابة صمام امان لما قد يصيب الحياة الزوجية من مشاكل وشروخ مستعصية ، والذي لم يمارس في عالم الاسلام ، رغم حلّيته ، الا في نطاق محدود اذا ما قورن بما شهدته الساحة الغربية نفسها ، بما فيه المعسكر الشيوعي ، الامر الذي تؤكده الاحصائيات التي لاتميل يمينا او شمالا ؟

-٦-

وغير الطلاق مسائل اخرى كثيرة تصورتها صاحبتنا مشاكل ومعضلات وشمرت عن ساعد الجد سعيا لحلها ، واتخذتها اهدافا سددت اليها سهامها دون كلل او ملل ، لكنها في حقيقة الامر لا تعدو ان تكون الوضع الطبيعي الصحيح ، المرسوم بعناية ، والذي شذت عنه المرأة الغربية فشقيت وتعذبت ، وهاهي الصحفية اياها تبذل جهودا استثنائية مضاعفة لكي تدفع المرأة المسلمة الى الخروج من هذا الوضع اسوة بما فعلته زميلتها الغربية ، مهما تكن النتائج وبغض النظر عن المصير الذي ستؤول اليه.

فهي – مثلا – تريد ان تحطم حاجز القوامة ، قوامة الرجل على المرأة في مؤسسة الاسرة .. لماذا ؟

اذا كان الاسلام قد منح الزوجة من الحقوق المادية والادبية والقانونية مالم تتمتع به امرأة في العالم .. اذا فهمنا (الحق) طبعا على انه قيمة ايجابية ترتبط ارتباطا عميقا بالنظام وتشكل جانبا بنائيا في صيرورته ، لا مجرد تسيب وتفلت وفوضى وضرب على غير هدى.

واذا كان الاسلام قد رتب على الزوج من الواجبات تجاه زوجته ما يمنح حقوقها تلك مزيدا من الحصانة والضمانات .. فماذا لو منح حق قيادة مؤسسة الاسرة للرجل باعتباره اكثر قدرة على ممارسة هذه الوظيفة بحكم موقعه الاجتماعي ، وربما – اللهم دون حسم او جزم – بحكم عقلانيته وعدم استجابته المبكرة للدوافع والمؤثرات العاطفية ؟!

ومعلوم انه مامن تنظيم او مؤسسة في حضارة ما من الحضارات الا واختيرت لها (القيادة) المتفردة التي تعرف – بحكم كفاءتها وامكاناتها وارتباطاتها – كيف تسوسها وتسير بها صوب النمو ، وتجتاز المشاكل والعقابيل ، ومعلوم كذلك ان ازدواج السلطة يعني التفكك

والدمار ، وهو يتمخض عن حشود من السلبيات تفوق كثيرا ما يمكن ان يتاتى عنها من ايجابيات.

الصحفية تأبى الإذعان لهذه البداهات وتصر على استيراد الصيغة الغربية التي تضيع فيها الرأة والرجل معا حيث تضيع القيادة وحيث تصبح مؤسسة الاسرة مركبا بدون قبطان.

-٧-

وماذا عن تفرغ المرأة للبيت ؟ ماذا عن دورها الكبير هناك ؛ الدور الواسع المتشعب الخطير الذي اعترفت به التجربة الواقعية قبل وبعد تاكيدات الاديان ، والشرائع ؟

ان الاسلام – طبعا – لا يرفض خروج المرأة ، لا يرفض توظيفها هنا او هناك ، لا يقف بمواجهة الافادة من كفاءاتها في هذه الدائرة او تلك من دوائر الدولة او النشاط العام ومؤسساتها ، لكنه يرفض الا تكون هناك ضوابط ومعايير وخرائط دقيقة تتحرك المرأة على ضوئها ، فلا تهدر طاقاتها او تضيع.

والاسلام ، كما هو شأنه في كل مسائل الحياة ، يرتب سلما للاولويات هو بمثابة ضرورة من الضرورات الاجتماعية بل الحضارية ، وهو هنا بصدد وظيفة المرأة ، يجعل مهمتها في مؤسسة الاسرة هي القاعدة ، او الضرورة ، او المهمة الاولى في وجودها ، وبعدها تتسلسل الوظائف والمهمات ، على ضوء الحاجة الاجتماعية ووفق الظرف التاريخي الذي يعيشه شعب من الشعوب.

فعندما كانت الدولة الاسلامية الفتية تقاتل خصومها في كل مكان ، عندما كانت مهمتها تعزيز مكانتها في الارض بأيد لم تكن تكفي لتنفيذ هذا الهدف الكبير كان لابد للمرأة ان تدخل طرفا في المعادلة ، وان تقف الى جانب الرجل تحمل السلاح وتقاتل.

وعندما كانت الامة الاسلامية تجابه التحديات الحضارية ، بعد الفتح ، وتعمل عقلها لتنفيذ قيمها العقيدية في واقع الحياة ، وتشكيل التيار الثقافي الذي يحمل صبغتها ، كان لابد للمرأة كذلك ان تدخل طرفا في المهمة وان تكتب وتحدّث وتعلّم وتتعلم .. الى آخره ..

لم يقل أحد في الحالتين بان المرأة خرجت عن دورها المرسوم وان عليها ان ترجع لكي تظل في البيت. ولكن كانت مهمتها كربة بيت .. كزوجة .. وام .. ومربية .. هي القاعدة التي اكد عليها الاسلام ، وغدت في حس المسلمين بمثابة بداهة من البداهات. وكانت المعادلة بهذه الصيغة واضحة ومقنعة ، ولم يترتب عليها كما يتوهم عشاق جلب المتاعب الحضارية اية معضلة تقتضي دراسة او حلا ..

وتجيء الصحفية المثابرة لكي تصرخ على مدى اربعين عاما بان على المرأة ان ترفض عبوديتها للبيت وان تخرج لكي تحقق انوثتها وحريتها وتكسب حقها المهدور دون ان تدرك – هذه الصحفية – او لعلها تدرك وتتعمد التجاهل ، ان انوثة المرأة لن تتحقق الا من خلال وظيفتها الاساسية كزوجة وأم ومربية ، والا من خلال كونها طرفا في معادلة الحياة والتخلق ، تلك التي تضم الرجل والمرأة والاطفال ، منذ كان هنالك تقابل بين الرجل والمرأة من اجل استمرار الحياة.

– ٨ –

ومسألة التحجب ، كانت هي الأخرى الساحة التي قدمت فيها صاحبتنا فنونا من الاثارة بالكلمة الحادة التي تجرح وتدمي ، وبالصورة التي تكاد الاحرف فيها تصرخ حتى تبح اصواتها.

فما دامت المرأة الغربية قد كشفت عن ساقيها فانه يتحتم على المرأة الشرقية المسلمة ان تكشف هي الاخرى عن ساقيها .. ومادامت المرأة الغربية قد عرضت جانبا من ثدييها فان لزميلتها المسلمة ان تحذو حذوها .. ما دامت المرأة الغربية قد لطخت وجهها وهي تغادر البيت بحفنات من الاحمر والابيض ورشت على جسدها حفنات اخرى من العطور فان للمرأة المسلمة ان تلطخ وترش هي الاخرى .. ما دامت المرأة الغربية تلهث وراء (الموضات) الجديدة في عالم الازياء فان المرأة الشرقية يجب ان تلهث هي الاخرى وترغم زوجها على ان يلهث هو الاخر لكي يغطي مطالبها جميعا ..

لماذا ؟ هل ثمة أية قيمة (حضارية) تكمن في الطبيعة المتعهرة التي تكون عليها المرأة في الشارع او الدائرة او المعمل ؟ هل ثمة اية عرقلة او اعاقة للصيرورة الحضارية في كون المرأة ترفض التبرج ، وتأبى التزين الا لزوجها وزميلاتها ؟

– ٩ –

ان الحديث عن البعد الحضاري لمسالة التحجب او التبرج يطول ، ومن اجل الاقتصاد في الكلمات احب ان اشير الى واحدة من الظواهر المشهورة تستمد قدرتها على الاقناع من كونها امرا معيشا شهدناه بام اعيننا في هذا البلد او ذاك من بلدان الاسلام.

إن اقبال الشباب على الفتاة المحجبة اخذ يتصاعد حتى كاد ان يسجل ارقاما قياسية. ويستطيع المرء ان يستخلص في هذا المجال المحصلة التالية : اذا حدث وان تساوت امراتان في الجمال ، وربما في الحسب والموقع الاجتماعي ، فان حظ المرأة المحجبة من الخطبة يزيد بنسبة ملحوظة عن حظ السافرة .. لماذا ؟

الجواب واضح قد لا تدركه صاحبتنا بسهولة بعد اذ التوى تكوينها وغابت عنها بداهات الاشياء.

إن الفتاة المحجبة اكثر قبولا للحياة الزوجية حتى بالنسبة لبعض الاباحيين والمتحللين انفسهم ، لأنهم يعرفون جيدا ان هذه الحياة التي تتطلب ثقة وامنا واستقرارا ، شيء ، والبهيمية التي تتوخى اشباع الشهوة العابرة شيء آخر.

فالتجربة الجنسية المحضة مسألة بسيطة قد تلبي نداءها هذه المرأة او تلك ، ولكن الزواج تجربة معقدة وممارسة مركبة تتضمن اكثر من وجه ، وتتداخل فيها دوافع شتى لاتقتصر على المساحة الجنسية الصرفة. ولن تصلح لهذه التجربة مطلق انثى كما يقول المناطقة ، بغض النظر عن كافة الجوانب المعقدة المتشابكة ، بل لابد من توفر حد ادنى من الشروط لكي يستقيم البناء ويتماسك ويتجاوز صيغته الكارتونية التي تنادي بها الصحفية اياها والتي تجعل من مسالة بناء العائلة واشباع حاجة الابوة والامومة وتنفيذ وظيفة استمرارية الحياة ، امرا ثانويا بالنسبة للتحقق الشكلي للمرأة المتحررة.

-١٠-

ان نقل المعضلات الغربية الى عالم الشرق ومحاولة وضع رداء اسلامي على جسدها المتقرح ، ان كان مقبولا قبل اربعة عقود او خمسة ، فانه ليس بمقبول الان بعد ان اصبح بمقدور قنوات الاتصال اليومي بالحياة الغربية ، ان تنقل الينا دقيقة بدقيقة ما يجري هناك.

ولن يكون بمستطاع ألف أخرى من الصحفية المذكورة ان تطمس على هذا الذي يشهده الجميع لكي ترمي به الاسلام والمسلمين.

شيء من الفكر الوضعي

– ١ –

كثيرا ما يتساءل المرء : لماذا يصر الفكر الوضعي[٢٣] عموما والغربي بخاصة ، على التشبث بجانب واحد من الفكرة ذات الجوانب العديدة ، ويقف عند مساحة محدودة منها بينما هنالك مساحات شتى ؟! ولماذا يصر على تبسيط الظاهرة وحملها على ان تطل على الانسان بوجه مسطح واحد بينما هنالك وجوه عدة ؟! ولماذا يتشنج على طبقة واحدة من الحقيقة بينما هي تتضمن طبقات وطبقات ؟

إن السبب قد يحمل بعدا نفسيا ذاتيا صرفا ، فالمفكر الوضعي الذي يكتشف جانبا من الحقيقة ، او مساحة من الظاهرة ، او وجها مامن الفكرة ، يسعى للاعتقاد بان ماكتشفه هو الجانب الوحيد للحقيقة والمساحة الكلية للظاهرة والوجه المتفرد للفكرة .. ويبذل جهدا متواصلا لاقناع اتباعه بذلك ولشدة التكرار والالحاح يتوهم هؤلاء ان ما يقوله هو الحق وان اكتشافه الفكري هو الصواب ، وانه يتضمن اطراف الحقيقة او الفكرة او الظاهرة كافة ..

إنه نوع من الرغبة في تعبيد الناس للمفكر وكسب اعجابهم وانبهارهم من خلال اطروحاته الفكرية المعززة باستنتاجات ومعطيات متواصلة لتاكيد انها الحق المطلق وان ماوراءها الباطل والضلال. وهو يبني موقفه هذا ، او كسبه غير المشروع اذا صح التعبير ، على ماقد يتضمنه العقل البشري من قصور وعدم قدرة على الالمام بجوانب الحقيقة ، وافتقاده النظرة الكلية التي تستشرف اطراف الظاهرة من كل مكان .. هذا العقل الذي يظل يعاني من نقصه هذا طالما هو لم يستهد بدين سماوي .. ببرنامج عمل موضوعي يجيء من السماء ويمنح الانسان والعقل الانساني ، بما يتضمنه من علم الهي شامل ، القدرة على تجاوز النظرة احادية الجانب ، والتوغل لادراك جوانب الحقيقة ومساحاتها وطبقاتها جميعا.

– ٢ –

ان المفكر الوضعي ليمارس هنا نشاطا ضد المنهج ، ضد الموضوعية والتجرد العلمي .. وهذه الضدية تجيء على حساب الحقيقة.

نعم قد يكسب المفكر الجولة ، وقد يلتف حوله المريدون والاتباع ، وقد يوحي لفترة طويلة من الزمن انه وضع يده على مفاتيح الحقيقة وانه سبر غورها العميق ، ولكن الخاسر في

(٢٣) المقصود هنا هو المدلول اللغوي لا الاصطلاحي لكلمة (الوضعية).

هذه اللعبة التي تكررت على الساحة الاوروبية عشرات القرون ، هو الحقيقة ، والانسان الذي يتوخى معرفتها وادراكها في نهاية الامر.

ويقوم هذا النشاط الذي يمارسه المفكر ضد المنهج والموضوعية على محاولة توسيع مساحة (الاكتشاف) لجعله يلف الظاهرة كلها ... مطّه باي اسلوب لكي يحيط بالفكرة من جوانبها كافة .. ارغامه على التضخم لكي يوازي الحقيقة طولا وعرضا وعمقا ..

– ٣ –

والمشكلة ان هذا الاكتشاف الذي يحمل قيمته الكبيرة بحد ذاته ، قد يغطي مساحة من الظاهرة .. قد يفسر جانبا من الفكرة .. قد ينشر شعاعه على جهة محدودة من الحقيقة لكي يضيئها .. ولكن تبقى دائما مساحات وجوانب اخرى من الظواهر والافكار والحقائق لايكفي الاكتشاف ، ان على مستوى النوع او على مستوى الكم ، لتفسيرها واضاءتها ، لابد من اكتشافات أخرى واضاءات متتالية ، تاخذ طابع التتابع والتكامل ، وتسلط على الحقائق والظواهر والافكار جميعا ، ويسهم فيها خط طويل من المفكرين ، وعقول متالقة لا يحصيها عد .. وعند ذلك قد تصل الى تفسير هذه الظاهرة او تلك ، وقد لا تصل اساسا ..

– ٤ –

لكن العلوم الانسانية شهدت صيغة اخرى في العمل .. صيغة الانفراد ، والذاتية ، والادعاء ، والتضخم .. ولذا لم تستطع ان تقدم للانسان عشر معشار ما قدمته العلوم النظرية والتطبيقية .. ولهذا – أيضا – آلت الى الفشل والسقوط الواحدة تلو الاخرى ..

فعلى سبيل المثال ، لماذا يصر عقل فذ (كهيغل) على جعل الجدل ، او الديالكتيك ، او التقابل المتضاد بين الحقائق والتجارب ، يقتصر على نطاق (الفكرة) ؟ ولماذا يجيء (ماركس) و(انغلز) بعده لكي يدينا على احادية نظرته ، بل على وضعها المقلوب ، لكنهما ما يلبثان ان يقعا في الخطأ نفسه فيتشنجان على نظرية الديالكتيك المادي اي الجدل في نطاق المادة وحدها ؟

انهما يتهمان (هيغل) بانه وضع فلسفة ((تمشي على رأسها)) لكنهما وهما يسعيان لتعديل الوضع الفلسفي ، قدما فلسفة تمشي على بطنها بحثا عن الخبز وحده.

أما كان من الاولى ان يتجاوز (هيغل) تشبثه بالفكرة ، وان يبعد (ماركس) و(انغلز) قليلا عن الارضية المادية ، وان يحاول الطرفان وضع صيغة للجدل اكثر شمولية تتضمن الفكري والمادي معا ؟

ثم لماذا يصر الطرفان على ان الجدل بين الافكار او الصيغ المادية ياخذ طابع التناقض والتضاد ويقود دوما الى الاصطراع ؟ الا يتحتم ان تضاف اليه صيغ اخرى للعلاقة تأخذ طابع (التبادل) بدلا من التضاد ؟

تبادل في الاخذ والعطاء دونما ضرورة لصراع محتوم ، ودونما اطراح لبعض العناصر من هذا الجانب او ذاك ، بل بلورته وتثبيته واضافته للموحد الجديد ..

وغير (هيغل) و(ماركس) و(انغلز) كثيرون جدا ..

– ٥ –

إن ثمة اسئلة كثيرة تخطر على بال الانسان وهو يتعامل مع الفكر الوضعي ولئن لم تحظ باي جواب فان ثمة مايشبه القناعة تبرز لكل ذي عينين : ان النظرة احادية الجانب ، تلك التي تاخذ بخناق هذا الفكر ، ان هي الا انعكاس لنوع من الادعاء والغرور ، وربما الكذب ، سواء شئنا ام ابينا .. والمفكرون الغربيون هم كما يصفهم كتاب الله :

((إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى))[٢٤].

تلك هي أزمة الفكر الوضعي من جهة المفكر نفسه ، اي من الزاوية التي يطل بها على العالم ، والمنهج الذي يعتمده في التعامل مع الظواهر والحقائق والاشياء ..

ولكننا نريد ان نقف لحظات في الجهة الاخرى ، جهة العقل الغربي المتلقي وهو يتعامل مع معطيات مفكريه : مذاهب ومدارس وعقائد ونظريات .. جهة المثقفين الغربيين وهم ينتمون الى هذه المدرسة او تلك والى هذا المذهب او النظرية او ذاك ..

فها هنا ايضا نجابه بعدد من الاخطاء المنهجية في طبيعة هذا التعامل ، ويكمن اكبر هذه الاخطاء واشدها وضوحا في المشكلة نفسها التي يعاني منها المفكر واضع النظرية او مصمم المذهب ، تلك هي – مرة اخرى – النظرة احادية الجانب ، حيث يمارس المثقف ما يمكن اعتباره خداعا وتضليلا على حساب الحقيقة ، او ما يمكن اعتباره خطأ منهجيا على اقل تقدير.

انه يصدق فعلا ان ((الاكتشاف)) الذي حققه هذا المفكر او ذاك ، ومطّه ونفخ فيه لكي يجعل منه نظرية ، او مذهبا ، يفسر كل شيء ويلقي ضوءه على كل معضلة او مسالة غامضة في الوجود والعالم ، يصدق ان هذا الاكتشاف هو الحق المطلق .. الرؤية المتفردة .. الكشف النهائي للسنن والقوانين التي تحرك العالم وتفسر معطياته في الوقت ذاته.

---

(٢٤) سورة النجم ، (الآية ٢٣).

وهم ، أي المثقفون ، يدفعون انفسهم الى نوع من الاستسلام لهذا التصور ، يصل بهم احيانا حد الوثنية والتعبد ، فيفقدون القدرة على اي تفكير مستقل يخرج بهم عن دائرة المذهب الذي انتموا اليه ، والمفكر او الفيلسوف الذي امنوا به .. بل انهم يعتبرون اية محاولة لتجاوز اطروحات المذهب خروجا على التعاليم المقدسة ، وهرطقة يستحق صاحبها اشد العقاب.

-٦-

واذا كان المفكر الوضعي يتخذ موقف المعلم المطلق ، او صاحب الاكتشاف المقدس ، لتحقيق حاجة ذاتية في تركيبه الخاص ، فما الذي يجعل المثقف المتلقي ، او التابع ، يتخذ موقف التسليم المطلق والانقياد الاعمى للفكرة او الاكتشاف ؛ ويتشنج عليهما ويعتبرهما الحق الذي ليس وراءه سوى الضلال ؟.

قد يلعب البعد النفسي دوره هنا ايضا .. فان الانتماء لمذهب ما والمبالغة في الاعتقاد بانه الحق المطلق واليقين الكامل ، يمنح الذات فرصة للتحقق والتوازن والامتلاء ، ويشبع فيها حاجات كانت في كثير من الاحيان بمثابة الدافع القوي للسلوك البشري.

لكن هذا وحده لا يكفي .. انه – مرةً أخرى – القصور العقلي .. عدم قدرة الانسان على بلوغ اليقين المطلق ، او رؤية الحقيقة كاملة ، طالما هو رافض للتلقي عن العلم الشامل ، ومن ثم يجد نفسه اسير التجزيئية ، والقصور ، والرؤية ذات البعد الواحد.

وهو من أجل تجاوز محنته ، بل بسبب من اعتقاده بقدرته العقلية الفائقة ، يندفع للتصديق بهذه النظرية او تلك ، والتسليم بهذا الكشف او ذاك ، لا لانها بحد ذاتها تحمل الصواب المطلق ، بل لانه هو نفسه لا يملك المقاييس الموضوعية النهائية للحكم عليها ، ومن ثم فقد يمتلك القناعة الكافية ، المتناسبة مع قدراته المحدودة ، في ان هذا الذي يطرحه مفكر او فيلسوف ما هو الصدق واليقين والحق ، وان الانتماء اليه يمنح الفكر معادلاته الموضوعية ، وتوازنه ، واستقراره.

-٧-

ان المشكلة ، مرة اخرى ، تكمن في غياب الرؤية الدينية ، انعدام المقاييس الموضوعية التي تنبثق عن العلم الالهي الشامل .. وهنا ، في الساحة التي يتفرد فيها بالسلطان العقل ذو القدرات النسبية ، يصبح الانتماء مجرد اجتهاد شخصي قد يخطىء وقد يصيب ، وهو حتى اذا اصاب فانه لا يتحقق بالمعرفة الكلية اليقينية الشاملة ، لانه ليس بمقدور عقل بشري ان يبلغ شواطئها.

وهنا قد يسأل المرء : اذا حدث وان طرح مفكر ما كشفا او نظرية تناقض في جوهرها كشف مفكر اخر او نظريته ، فمن يكون من اتباع كلا المفكرين على حق ومن يكون على ضلال ؟

إن هذا التناقض الطولي بين مفكر واخر يعملان في مجال واحد ، من مثل التناقض بين (ماركس) و(هيغل) ، يكفي وحده ان يهز قناعات الاتباع بكل الربوبيات والصنميات الفكرية ، لكن هذا لا يحدث ، لان القصور الفكري وضياع المقاييس الشمولية ، فضلا عن الحاجات والدوافع النفسية في الاحتماء بهذه النظرية او تلك ، والامتلاء بقناعاتها ، يمنع مثل هذا المصير.

-٨-

مهما يكن من امر فان بعض المفكرين بسبب من تضخم احساسهم بالقدرة على الكشف، وبأن كشفهم هذا قدير على الامتداد لتغطية جوانب الحقيقة كافة وتفسير كل شيء ، بسبب من هذا يتجاوزون – احيانا – دوائر تخصصهم ويوغلون في مجالات ودوائر اخرى للمعرفة قد لا يملكون من الادوات والوسائل مايمكنهم من ان يحققوا فيها ما حققوه هناك في حقل تخصصهم وابداعهم.

واذا كان الدافع لهذا السلوك واضحا ، فما الذي يدفع (الاتباع) الى تقبل هذا الموقف واعتبار معطيات المفكر ، حتى في مجالات تبعد عن تخصصه ، بمثابة الحقيقة النهائية هي الاخرى ؟

إن هذا بالذات هو ما يحدث بالنسبة للماركسيين – على سبيل المثال – وهم يتعاملون مع اكتشافات (ماركس) في حقول الاقتصاد والفلسفة والتاريخ ، فيرونها جميعا بمثابة الامور التي تتجاوز حدود الحقائق الاختبارية الى نوع من القدسية التي يتحتم الا يمسها احد بأية صيغة من صيغ التساؤل والشك.

فاذا كان (ماركس) متضلعا في حقل الاقتصاد وقدم في دائرته كشوفا ذات قيمة كبرى ، فما الذي يحتم على اتباعه قبول كل معطياته وكشوفاته في مجالين اخرين قد لايكون صاحب القول الفصل فيهما وهما الفلسفة والتاريخ ..

إن الفلسفة التي تتعامل مع المادة لا يمكن ان تمنحنا قناعات كافية ان لم تبدأ من المختبر وتنبثق عن اسس فيزيائية علمية كما يفعل رجال من امثال (هايزنبرغ) و(اينشتاين) و(كاريل) وغيرهم.

والبحث في التاريخ ، ما لم يستكمل تفاصيل وجزئيات كل عصر وبيئة لا يمكن ان يمنحنا نتائج نهائية.

وعلى ضوء هاتين البديهيتين يمكن ان نقيم معطيات (ماركس) في هذين الحقلين ، ونحن لا زلنا نذكر عبارة الباحث الاقتصادي (اوسكار لانكه) ، وهو احد اكبر اخصائيي اقتصاد الدول النامية. فهو بعد ان يستعرض جهود الكتاب الذين اهتموا بدراسة اقتصاد مجتمعات ما قبل الراسمالية منذ عصر (ماركس) وحتى عصر (بورشييف) ، يقول ما معناه ((ولكن هذه الدراسات جميعها مفككة ، لذلك فان الاقتصاد السياسي للنظم الاجتماعية ما قبل الراسمالية لما يخرج بعد الى حيز الوجود باعتباره فرعا منظما من فروع الاقتصاد السياسي))[٢٥].

ولكن هل يكفي هذا كله لفك الارتباط الوثني بين الاتباع والارباب ، وتجاوز تقاليد قرون طوال سادت الفكر الغربي ولا تزال ؟.

(٢٥) انظر كتابه (الاقتصاد السياسي) ، ١٤٨/١ ترجمة : د. محمد سلمان الحسن (عن محمد علي نصر الله) : اضواء على نمط الانتاج الاسيوي ، مجلة آفاق عربية ، سنة ٢ ، عدد ٦ ، ١٩٧٧).

دعوة الى مد الحياة

– ١ –

ومــن دعــى التــاريخ فــي صــدره اضـــاف اعمـــارا الـــى عمـــره ..

وانا اتذكر هذا البيت تذكرت في الوقت نفسه كيف يمنح الاسلام الانسان فرصة فذة لمدّ رحلة حياته القصيرة واغنائها وجعلها اعمارا لا تحصى بدلا من العمر الضيق ، المسطح، الواحد، القصير الذي يعرفه الانسان العادي ويتألم من ضيقه وقصره وسرعة انصرامه !!

إن الشاعر يريد ان يقول هنا بان ادراك التاريخ والالمام بدقائقه المتلاحقة الموغلة في الزمن ، ومعايشتها كما لو كانت واقعة اللحظة ، يمنح حياة الانسان امتدادا في الماضي يضيف من خلاله الكثير من التجارب والمواقف والاحداث الى مكونات هذه الحياة المحدودة فيمتد بها ويغنيها باعمار جديدة لا تعد ولا تحصى ..

– ٢ –

في القرآن الكريم دعوة (يومية) في الاتجاه نفسه ، ان اياته البينات ترحل بالمؤمنين عبر كل تلاوة في مجرى الزمن وتحكي لهم عن وقائع التاريخ المزدحمة واحداثه المتلاحقة ومعطياته المتمخضة عن القيم والعبر والدلالات معظم سور القرآن تضرب على الوتر نفسه فلا تخلو من واقعة تاريخية او حدث ماض او دعوة لاستلهام المغزى من هذه التجربة او تلك .. ان الامتداد الذهني والوجداني الى الماضي يشكل مساحة واسعة في كتاب الله ، وقد تحدثت عن الموضوع باسهاب في مقدمة كتاب (التفسير الاسلامي للتاريخ) .. لكنني هنا بصدد مسالة اخرى .. ان تاكيد القرآن على المعايشة التاريخية ، واعادة عرضها المرة تلو المرة ، باسلوب مؤثر وصيغ تهز الوجدان ، يلعب دوره في اغناء حياة الانسان ومدها وتكثيفها ومنحها الفرصة لان تكسب – بتعبير الشاعر – اعمارا اخرى .. لكن الامر لا يقف عند هذا الحد .. ان القرآن الكريم والتجربة الايمانية عموما ، تسعى لان تمد ابصار الانسان إلى المستقبل القريب والبعيد ، جبنا إلى جنب مع التوجه صوب الماضي. وهذا النزوع المستقبلي كما انه يؤكد حركية الاسلام على المستوى العام ، فانه على المستوى الوجودي الخاص اذ صح التعبير – يمنح الانسان فرصة اخرى لمد حياته واغنائها وكسب رصيد زمني تتضاءل ازاءه السنون الخمسون والستون أو حتى التسعون التي تحسب عمرا للانسان.

وأي مستقبل هذا الذي يتواصل معه الانسان المسلم ؟

إنه زمن مفتوح على مصراعيه ، ممتد في الابدية ، لا تقطّع فيه ولا حواجز ولا زوال .. انها الرؤية التي تلغي واقعة الموت من حسابها ، فتحرر الانسان من عمره المحدود وتطلقه في المدى عبر الاف السنين صوب يوم الحساب !!

ويوم الحساب في كتاب الله قريب بعيد .. ومهما يكن من قربه او بعده فانه يجيء بمثابة بدء لزمن الخلود الذي لا ينتهي او ينعدم ابدا ..

كل منا تملّكه هذا الاحساس اللذيذ ، المطمئن ، العزيز ، بين الحين والحين .. وان عمره ليس بمحدود وان زمنه ليس بفان ، وانه ممتد بمشيئة الله وقوة الروح في الزمن القادم .. وليس الموت حاجزا او فاصلا ، ليس الموت نهاية طريق او بابا موصدا .. انه مجرد نقلة ، نقلة سريعة ، ينطلق الانسان بعدها لمواصلة الحياة بهذا الشكل او ذاك مما لا يعلم كنهه الا الله سبحانه وتعالى.

كل منا احس ، في مجابهته الضغوط النفسية والمتاعب التي لا تنقضي والاحزان المتجددة ، انه قدير على تجاوز الاسر والانطلاق في الزمن حيث لا خوف ولا تناقص ولا عد تنازلي باتجاه لحظة الافول الاخيرة ..

ان رحلة الانسان في التصور الاسلامي ماضية الى هدفها .. طويلة مديدة .. وانها وهي تتوجه صوب يوم الحساب القريب البعيد لتأمل في معانقة خلودها الموعود !!

وما اروعه من احساس يملأ وجدان الانسان وعقله وقلبه باقتناع ليس الى تعريفه من سبيل ، ويدفعه الى نفور جارف ورفض حاسم لكل اولئك الذين راوا في حياتهم الدنيا فرصتهم الاولى والاخيرة ، وفي سنيهم الخمسين والسبعين عمرهم الوحيد .. ايكون الانسان ، بعد هذه الرحلة القصيرة ، لقمة سائغة للعدم ؟ انه تصور تضيق معه نفس المؤمن الذي يرفض خرافة العدم هذه ، حتى ليكاد يختنق وهو يعاينها من بعيد ..

لقد خلق الانسان لكي يظل موجودا .. لكي يمتد في الزمن فلا يكون عرضة لانعدام او فناء .. ان هذا هو الذي يميز الانسان عن الحيوان والاشياء .. انها مرهونة بعمر محدود ، تتلاشى بعده وتضيع .. اما الانسان فانه يتفرد على الكائنات ويظل ممتدا في الابدية ، دائما في الزمان .. ليس الانسان (شيئا) او (حيوانا) !!

– ٤ –

والقرآن الكريم معروفة طرائقه الفنية المؤثرة في التعامل مع الزمن .. انه يتنقل بحرية بين الازمان الثلاثة .. يلغي الحواجز ويزيل المتاريس ، ويمضي يحدثنا عن وقائع الكون والحياة والعالم .. الماضي وكانه يتخلق امام اعيننا .. المستقبل وكانه اصبح ماضيا .. الحاضر وكانه

ممتد ، ممتد ، ماضيا ومستقبلا .. فلا اول له ولا انتهاء .. ((من اجل هذا يغدو (التاريخ) في القرآن الكريم وحدة زمنية ، تتهاوى الجدران التي تفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل ، وتتعانق هذه الازمان الثلاثة عناقا مصيريا .. حتى الارض والسماء .. زمن الارض وزمن السماء .. قصة الخليقة ويوم الحساب .. تلتقي دائما عند النقطة الحاضرة في (بانوراما) القرآن .. فهذا الانتقال السريع بين الازمان الثلاثة يوضح حرص القرآن على ازالة الحدود التي تفصل بين الزمن باعتباره وحدة حيوية متصلة ، فتغدو حركة التاريخ التي يتسع لها الكون حركة واحدة تبدا يوم خلق الله السماوات والارض وتتجه نحو يوم الحساب. ان الحياة الدنيا فعل تاريخي مستمر يتشكل من الماضي والحاضر ويرتبط بمستقبل يوم الحساب الذي هو بمثابة المصير النهائي لفاعلية الانسان في العالم .. ولهذا يقدم لنا القرآن وصفا رائعا يتميز بالحيوية والتدفق لمجرى التاريخ البشري ، وبهذا التوافق بين الماضي والحاضر والمستقبل ، وينقلنا بخفة وابداع بين الاونات الثلاث حيث تذوب الفوصل والحواجز وتسقط الجدران))[٢٦].

وهذا التوحد في الزمن ، هذه الرؤية الامتدادية التي تلم الماضي والحاضر والمستقبل وكانها طريق واحد غير منصرم ولا مقطوع .. هذا الموقف الشمولي الذي يصور ادم وذريته جيلا واحدا من الناس منذ لحظة الهبوط الى العالم وحتى يوم الحساب .. تمنح الانسان المسلم قدرا هائلا من التحرر .. من الاحساس بالقدرة الجارفة على الاستجابة لتحديات الموت والانقطاع والفناء .. بل على تحديها ومجابهتها واختراقها .. انه حي موجود على اية حال .. هنا في الارض ام هنالك في السماء .. هنا في الحياة الدنيا ام هنالك في السماوات العليا .. في زمن الفناء ام في دنيا الخلود .. انه حي موجود .. فمم يخاف ؟ وعلام ؟ ان القرآن الكريم يقولها بوضوح : ((**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**))[٢٧].

وانه للمفتاح الذي يفسر لماذا كانت جماعات المسلمين تتهافت على الموت .. تتعشقه .. تركض اليه ركضا .. تتزين وتطهم خيولها وهي ذاهبة اليه .. لقد كان الموت دائما بمثابة العرس الذي يزف ارواح المجاهدين الى الخلود .. وكانت لياليه المترعة تصنع الفجر الاسلامي المرة تلو المرة ..

لقد كانت جماعات المسلمين ، ولا تزال ، تحمل هذا الاحساس المترع بالديمومة .. بالاستمرار .. بالتواصل الذي لاتقطع فيه ولا انصرام .. فما الموت ؟ وما القتل ؟ وما الشهادة ؟ انهم (موجودون) قبل الموت وبعده .. (حاضرون) قبل القتل وبعده .. احياء في الارض والسماء ..

---

(٢٦) التفسير الاسلامي للتاريخ ، للمؤلف ، ص ١٤.

(٢٧) سورة آل عمران ، (آية ١٦٩).

لقد فتح المسلمون العالم .. غيروا خرائطه .. اسقطوا دولا وممالك وامبراطوريات .. سحبوا العروش المحملة بالذهب والفضة من تحت الاكاسرة والقياصرة .. اعادوا صياغة الوجود من جديد .. فعلوا هذا كله لانهم كانوا يحملون مفتاحه الوحيد : حب الموت ، ليس لانهم يريدون ان يموتوا ولكن لانهم يطمحون للحياة .. يتعشقون الدوام والامتداد .. وما كانوا بقادرين على تحقيق امنيتهم الكبيرة هذه دون مجابهة الفناء ..

– ٥ –

وثمة ما يمنح المسلم امتدادا لحياته ، واغناء لتجربتها ، وتكثيفا لوجودها ، باتجاه آخر : العالم والطبيعة والكون ..

ان الاسلام يدعوه صباح مساء .. وكتاب الله سبحانه يناديه ليل نهار ان يفتح عقله وقلبه وحسه ووجدانه وبصيرته على العالم والطبيعة والكون .. ان يعيشها ويعيش فيها .. ان ينمي تجربته لكي تستوعب العالم والطبيعة ، وان يوسع مدى رؤيته لكي تعانق السماوات العليا وتلف اقطار الكون ..

يكفي ان نطالع في القرآن دعوته الملحة للنظر في صفحات النفس والطبيعة والعالم .. في كتاب الكون المفتوح ، لكي يتبين لنا المدى الشاسع الذي لاتحده حدود ، والذي يريد الاسلام للمنتمين اليه ان يتحركوا خلاله ويجوسوا عبر افاقه البعيدة ..

((فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(٢٤)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(٢٥)ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا(٢٦)فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(٢٧)وَعِنَبًا وَقَضْبًا(٢٨)وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً(٢٩)وَحَدَائِقَ غُلْبًا(٣٠)وَفَاكِهَةً وَأَبًّا))[٢٨].

((أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ))[٢٩].

((أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ(٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ))[٣٠].

((أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ))[٣١].

---

(٢٨) سورة عبس ، (آية ٢٤) فما بعد.

(٢٩) الاعراف ، (آية ١٨٥).

(٣٠) ق ، (آية ٦–٧).

(٣١) الغاشية ، (آية ١٧).

((فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[٣٢].

((وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ))[٣٣].

((قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ))[٣٤].

((قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[٣٥].

((وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ))[٣٦].

وأن الانسان المسلم يحس احساسا غامرا مترعا بالغبطة والنشوة والفرح بان وطنه الحقيقي ليس المدينة التي يولد فيها ، او الاقليم الذي يحيا فيه ، او الدولة التي يحسب عليها .. ان وطنه هو العالم كله .. وارضه هي الطبيعة على امتدادها .. وبلاده الكون على مداه .. انها قد سخرت له جميعا ، وهو سيد المخلوقات واكرمها عند الله .. يتحرك فيها كما يشاء، ويصوغ من طاقاتها وكنوزها حياته السعيدة المؤمنة .. ويتوجه من خلال ابداعها وجمالها وتنظيمها المعجز .. الى الخلاق المبدع الذي صنع هذا كله ..

انه – مرة اخرى – احساس مترع بالغبطة والثقة والاستعلاء والنشوة والفرح والامتداد ، هذا الذي يحتويه صدر المسلم وعقله ووجدانه وقلبه وهو يحس بانه ابن هذا العالم وان وطنه الحقيقي الكون كله على امتداده المفتوح ..

ان الاسلام هنا يمد العمر الانساني في الطبيعة والعالم والكون ، كما كان هناك يمده في التاريخ والمستقبل .. هنا يمده في المكان وهناك يمده في الزمان .. وهو في كل الاحوال يمنح الانسان الف فرصة وفرصة لتجاوز عمره المسطح المحدود صوب عمر مترع عميق غير محدود !!

---

(٣٢) الروم ، (آية ٥٠).

(٣٣) الانعام ، (آية ٩٩).

(٣٤) يونس ، (آية ١٠١).

(٣٥) العنكبوت ، (آية ٢٠).

(٣٦) الحجر ، (آية ١٦).

ومن خلال هذا الامتداد الافقي في الزمان والمكان يخطو المسلم بامتداد عمقي في الروح والنفس والفكر والحس والوجدان ..

ان رؤيته الايمانية تتطلب منه ان يجعل من حياته تجربة جياشة بالفعل ، والديمومة والتحقق ، مترعة بالحس والتامل والتفكير .. طافحة بالغبطة والفرح والاطمئنان واليقين .. ان الروح لتزداد غنى (بالنظر) الدائم الذي يدعو اليه كتاب الله .. والعقل ليزداد ادراكا (بالتفكر) الدائم الذي يدعو اليه كتاب الله .. والحس ليزداد امتلاءا بالتعامل المكثف مع الطبيعة والعالم ، ذلك الذي يدعو اليه كتاب الله .. والوجدان ليزداد شفافية ورقة وصفاء بالمعاناة الدائمة التي يدعو اليها كتاب الله .. ان العمر الحقيقي الذي يليق بمكانة الانسان في العالم هو ذلك الذي يتحدث عنه القرآن الكريم وهو يحكي عن اولئك :

((الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ))[٣٧].

انها – من حيث التفتنا – دعوة لتعميق الخبرة البشرية .. لمد التجربة الى الجذور البعيدة .. وانها لفرصة فذة للعمر المحدود ان يزداد اتساعا وتوغلا وامتدادا صوب الاعماق ، تماما كما كان هناك يزداد اتساعا وتوغلا وامتدادا صوب الآفاق .. هنا في صميم النفس وهنالك في ابعاد الزمان والمكان ..

ترى .. ابعد هذا كله .. دعوة لمد الحياة البشرية ، وتكريمها ، واغنائها ، ومنحها الفرصة لان تعيش عمرها كاملا غير مسطح ولا منقوص ..

كدعوة هذا الدين ؟!

---

(٣٧) آل عمران ، (آية ١٩١).

موقف ازاء الانسان : مقارنة في السلوك الحضاري

إن تغيير او تبديل أفكار الآخرين ، فيما يمكن تسميته بالتحوير الفكري ، اتخذ عبر التاريخ البشري ، ولا يزال ، طريقتين اثنتين تقوم اولاهما على الاقناع الحر الذي يعتمد على الحجة والبرهان والجدل المتكافىء بين الطرفين ، وهو الاسلوب السليم الذي لاغبار عليه .. ويقوم ثانيهما على الاكراه والقسر لحمل الاخرين حملا على تغيير افكارهم وقبول افكار الطرف الاخر .. ويبلغ اقصى درجات حدته فيما يسمى اليوم بغسيل المخ او الدماغ ، الذي يعتمد طرائق علم النفس الحديث وكشوفاته لتحقيق هذا الهدف .. تلك الطرائق والكشوفات التي ان كان اعتمادها يستهدف الكشف عن جريمة او فعل جنائي ، وخدمة المؤسسات التحقيقية والقضائية بالتالي ، واختصار الطريق عليها ، يعد عملا مقبولا .. فان اعتمادها لارغام الاخرين على تغيير افكارهم وقناعاتهم لاينسجم اساسا وبداهات الكرامة البشرية وحرية الانسان في المجتمع الذي يعيش فيه واحترام عقله ..

وقد أكد القرآن الكريم على رفض الاسلوب الثاني وسماه (فتنة) واعتبره خطيئة كبرى تفوق جريمة القتل ، على شناعتها ، فقال :

((وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ))[٣٨].

.. ودعا الى توسيع مفهوم الاختيار الحر في ميدان الفكر والعقيدة فقال :

((لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ))[٣٩].

وقال :

((وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ))[٤٠].

وقال :

((نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالقرآن مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ))[٤١].

---

(٣٨) البقرة ، (آية ١٩١).

(٣٩) البقرة ، (آية ٢٥٦).

(٤٠) يونس ، (آية ٩٩).

(٤١) ق ، (آية ٤٥).

((قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ))[٤٢].

.. كما اكد الاسلوب الذي يعتمد (البرهان) و(الحجة) و(الجدال الحسن) و(الموعظة) للوصول الى النتائج الصحيحة ولدعوة الاخرين الى العقيدة الجديدة على ضوء قدر كاف من الاستقراء والمقارنة والموازنة والتمحيص واعمال الفكر والمنطق :

((وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ))[٤٣].

((وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ))[٤٤].

((أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ))[٤٥].

((وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ))[٤٦].

((اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ))[٤٧].

((قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ))[٤٨].

((وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ))[٤٩].

((قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ))[٥٠].

---

(٤٢) الانعام ، (آية ١٠٤).
(٤٣) البقرة ، (آية ١١١).
(٤٤) المؤمنون ، (آية ١١٧).
(٤٥) النمل ، (آية ٦٤).
(٤٦) القصص ، (آية ٧٥).
(٤٧) القصص ، (آية ٣٢).
(٤٨) الانعام ، (آية ١٤٩).
(٤٩) الانعام ، (آية ٨٣).
(٥٠) هود ، (آية ٣٢).

((وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ))(٥١).

((ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ))(٥٢).

((ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))(٥٣) ..

وموقف القرآن الكريم من العقل البشري واضح بين في معظم سوره ومقاطعه وآياته .. وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان الافكار والعقائد التي يقبلها العقل او يرفضها يجب ان تترك للعقل نفسه ، والا يعتمد من الاساليب والوسائل ما يتجاوز مكانة العقل البشري وينزل بها الى مستوى القسر والارغام على تحوير قناعاتها ، او تفريغها ، لتقبل افكار او معتقدات لا تقوم عليه الحجة ولا يسندها جدل او برهان ..

ومعروف ان القرآن الكريم اعطى الحواس ، التي هي احدى مداخل المعرفة العقلية ، مسؤوليتها الكبيرة عن كل خطوة يخطوها الانسان في مجال البحث والنظر والتامل والمعرفة والتجريب فقال :

((وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً)) (٥٤)..

وطلب من المؤمنين ان يحركوا بصائرهم وعقولهم للوصول الى الحق الذي لا يقوم الكون الا به فقال :

((قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ))(٥٥) ..

وبين ان الانسان مسؤول عن اعتماد امكاناته الذاتية التي منحه الله اياها لانه من طينة اخرى غير طينة الانعام :

((إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا))(٥٦).

---

(٥١) العنكبوت ، (آية ٤٦).
(٥٧) البقرة ، (آية ٢٤٢).
(٥٢) النحل ، (آية ١٢٥).
(٥٣) الحج ، (آية ٨).
(٥٤) الاسراء ، (آية ٣٦).
(٥٥) الانعام ، (آية ١٠٤).
(٥٦) الانسان ، (آية ٢).

((كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ))[٥٧].

((قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ))[٥٨].

هذا الى ان كلمة (العلم) تأتي في القرآن الكريم مرادفة لكلمة الدين نفسها حيث يغدو العلم والدين سواء ، الامر الذي يؤكد موقف القرآن من العقل وضرورة احترامه ، كما يؤكد انه ليس هناك اي تناقض بين العلم الصحيح وبين معطيات الدين :

((وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ))[٥٩].

((هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ))[٦٠].

((وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا))[٦١] ..

ولا بد ان نشير هنا الى ان كلمة علم ، بتصريفاتها المختلفة ، وردت فيما يزيد على سبعمائة وخمسين اية في كتاب الله ..

وهذه المعطيات القرآنية تؤكد على ان الطريقة التي جاء بها الاسلام لدعوة الافراد والشعوب والامم الى الدين الجديد انما كانت تعتمد على قناعات العقول لاعلى قسرها وارغامها..

وقد شهد تاريخ الدعوة الاسلامية منذ عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وطيلة العصور التالية ، حيث انتشر الاسلام في مساحات واسعة من العالم ، اعتماد اكثر الاساليب مرونة وتقديرا للحرية البشرية .. ويمكن الرجوع في هذا المجال – على سبيل المثال – الى الكتاب القيم الذي الفه المستشرق الانكليزي السير توماس ارنولد Arnold . T والمعنون بـ (الدعوة الى الاسلام) The Preaching To Islam[٦٢] والذي يتضمن تحليلا مدعما

---

(٥٧) البقرة ، (آية ١٤٢).

(٥٨) الانعام ، (آية ٥٠).

(٥٩) البقرة ، (آية ١٢٠).

(٦٠) آل عمران ، (آية ٧).

(٦١) النساء ، (آية ١٥٧).

(٦٢) ترجمة : د. حسن ابراهيم حسن ورفاقه ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة–١٩٨١).

بالوثائق والنصوص للصيغ الانسانية التي اتبعها الاسلام خلال حركة انتشاره التاريخية منذ فجر الدعوة وحتى العصر الحديث.

والكتاب يمثل شهادة رجل من خارج عالم الاسلام ، ولهذا اهميته ولا ريب. هذا فضلا عما تتضمنه مصادرنا التاريخية القديمة من وثائق ووقائع ونصوص ، كتاريخ الرسل والملوك للطبري وتاريخ اليعقوبي ومروج الذهب للمسعودي والبداية والنهاية لابن كثير والكامل في التاريخ لابن الأثير وغيرها مما لايتسع المجال لاستعراضه او الاشارة الى معطياته في هذا المجال .. ونكتفي – ها هنا – ببعض الشهادات التي قدمها ارنولد كنماذج على تلك السلوكية العالية التي اعتمدها الاسلام في الانتشار العقائدي ، وذلك الاحترام الفذ للعقل البشري والحرية الانسانية ..

***

((يمكننا ان نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بان القوة لم تكن عاملا حاسما في تحويل الناس الى الاسلام . فمحمد نفسه قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية ، واخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في اقامة شعائرهم الدينية ، كما اتاح لرجال الكنيسة ان ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في امن وطمانينة))[٦٣].

((ان الأخبار الخاصة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية التي كانت تقيم في بلاد العرب الشمالية لاتزال بحاجة الى شيء من التفصيل ، والظاهر انهم قد انتهوا الى الامتزاج بالمجتمع الاسلامي الذي كان يحيط بهم عن طريق ما يسمونه (الاندماج السلمي) الذي تم بطريقة لم يحسها احد منهم ! ، ولو ان المسلمين حاولوا ادخالهم في الاسلام بالقوة عندما انضووا بادىء الامر تحت لواء الحكم الاسلامي لما كان من الممكن ان يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين))[٦٤].

((ومن هذه الامثلة التي قدمناها عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون الى العرب المسيحيين في القرن الاول من الهجرة ، واستمر في الاجيال المتعاقبة ، نستطيع ان نستخلص بحق ان هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الاسلام انما فعلت ذلك عن اختيار وارادة

---

(٦٣) المرجع السابق ، ص ٦٥.

(٦٤) نفسه ، ص ٦٨.

حرة ، وان العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح))[٦٥].

((لما بلغ الجيش الاسلامي وادي الاردن ، وعسكر ابو عبيدة في فحل ، كتب الاهالي المسيحيون في هذه البلاد الى العرب يقولون (يا معشر المسلمين ، انتم احب الينا من الروم وان كانوا على ديننا ، انتم اوفى لنا وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا واحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على امرنا وعلى منازلنا) .. وغلق اهل حمص ابواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وابلغوا المسلمين ان ولايتهم وعدلهم احب اليهم من ظلم الاغريق وتعسفهم))[٦٦].

((أما ولايات الدولة البيزنطية ، التي سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم ، فقد وجدت انها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ماشاع بينهم من الاراء اليعقوبية والنسطورية ، فقد سمح لهم ان يؤدوا شعائر دينهم دون ان يتعرض لهم احد ، اللهم الا اذا استثنينا بعض القيود التي فرضت عليهم منعا لاثارة اي احتكاك بين اتباع الديانات المتنافسة .. ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح – الذي يلفت النظر في تاريخ القرن السابع – من هذه العهود التي اعطاها العرب لاهالي المدن التي استولوا عليها وتعهدوا لهم بحماية ارواحهم وممتلكاتهم واطلاق الحرية الدينية لهم في مقابل الاذعان ودفع الجزية))[٦٧].

((وقد زار عمر الاماكن المقدسة يصحبه البطريق ، وقيل انه بينما كانا في كنيسة القيامة وقد حان وقت الصلاة ، طلب البطريق الى عمر ان يصلي هناك ، ولكنه بعد ان فكر اعتذر وهو يقول : انه ان فعل ذلك فان اتباعه قد يدعون فيما بعد انه محل لعبادة المسلمين))[٦٨].

((ولم يكن الغرض من فرض ضريبة (الجزية) على المسيحيين ، كما يريدنا بعض الباحثين على الظن ، لونا من الوان العقاب لامتناعهم عن قبول الاسلام ، وانما كانوا يؤدونها مع سائر اهل الذمة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش ، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين. ولما قدم أهل الحيرة المال المتفق عليه ، ذكروا صراحة انهم انما دفعوا هذه الجزية على شريطة (ان يمنعونا واميرهم البغي من المسلمين وغيرهم) وكذلك

---

(٦٥) نفسه ، ص ٦٩–٧٠ ، وهو يقتبس عبارة للمستشرق الايطالي المعروف كيتاني في كتابه (حوليات الاسلام) جزء ٤ ، ص٤. يقول فيها : (لم يضطهد العرب احدا في السنوات الاولى من اجل الدين ، كما انهم لم يعملوا على ضم احد إلى دينهم ومن ثم تمتع المسيحيون الساميون في ظل الاسلام بعد الفتوح الاولى بحرية لم يتمتعوا بها من قبل طيلة اجيال عديدة).

(٦٦) نفسه ، ص ٧٣.

(٦٧) نفسه ، ص ٧٤.

(٦٨) نفسه ، ص ٧٥.

حدث ان سجل خالد في المعاهدة التي ابرمها مع بعض اهالي المدن المجاورة للحيرة قوله (فان منعناكم قلنا الجزية وإلاّ فلا). ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت في حكم الخليفة عمر : لما حشد الامبراطور هرقل جيشا ضخما لصد قوات المسلمين المحتلة ، كان لزاما على المسلمين نتيجة لما حدث ان يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي احدقت بهم. فلما علم بذلك ابو عبيدة قائد العرب كتب الى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بان يردوا عليهم ما جبي من الجزية من هذه المدن ، وكتب الى الناس يقول : (انما رددنا عليكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع. وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم وانا لا نقدر على ذلك. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم). وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا : (ردكم الله علينا ونصركم عليهم – اي على الروم – فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا واخذوا كل شيء بقي لنا))[٦٩].

((ولما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم امنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني ، تمتعوا ، وخاصة في المدن ، بحالة من الرفاهية والرخاء في الايام الاولى من الخلافة))[٧٠] .. ويضرب ارنولد العديد من الامثلة على المناصب الكبيرة التي تسمنها المسيحيون في ظلال الخلافة الاسلامية عبر العصور[٧١].

((يكشف تاريخ النساطرة عن نهضة رائعة في الحياة الدينية وعن نواحي نشاطها ، منذ ان صاروا رعية للمسلمين[٧٢]. وكان اكاسرة الفرس يدللون هذه الطائفة تارة ويضطهدونها تارة اخرى ، اذ كان السواد الاعظم من افرادها يقيمون في ولايات هؤلاء الاكاسرة ، بل مروا بحالة اشد من هذه خطورة ، وخضعوا لمعاملة خشنة قاسية حين جعلتهم الحرب بين فارس وبيزنطة عرضة لشك الفرس فيهم بانهم كانوا يمالئون اعداءهم من المسيحيين. ولكن الامن الذي نعموا به في بلادهم في عهد الخلفاء ، قد مكنهم من ان يسيروا قدما في سبيل اعمالهم التبشيرية في الخارج ، فارسلوا البعوث الدينية الى الصين والهند ، وارتقى كل منها الى مرتبة المطرانية في

---

(٦٩) نفسه ، ص ٧٩.

(٧٠) نفسه ، ص ٨١.

(٧١) انظر المرجع السابق ، (الصفحات ٨١-٨٣).

(٧٢) زار راهب دومنيكاني من فلورنسا ، بلاد الشرق حول نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر وتحدث عن روح التسامح التي تمتع بها النساطرة إلى عصره في ظل الحكم الاسلامي فقال : (قرأت في (التاريخ القديم) ، مؤلفات للعرب موثوق بها ان النساطرة انفسهم كانوا اصدقاء لمحمد وحلفاء له ، وان محمدا نفسه قد اوصى خلفاءه ان يحرصوا على صداقتهم مع النساطرة التي يرعاها العرب انفسهم حتى ذلك اليوم بشيء من العناية) المرجع السابق ، هامش ١ ، ص ٨٧.

القرن الثامن الميلادي. وفي العصر نفسه تقريبا رسخت اقدامهم في مصر ، ثم اشاعوا فيما بعد العقيدة المسيحية في آسيا ، حتى اذا جاء القرن الحادي عشر كانوا قد جذبوا عددا كبيرا ممن اعتنقوا المسيحية من بين التتار. واذا كانت الطوائف المسيحية الاخرى قد اخفقت في اظهار مثل هذا النشاط القوي فليس هذا الاخفاق خطأ المسلمين ، اذ كانت الحكومة المركزية العليا تتسامح مع جميعهم على سواء وكانت فضلا عن ذلك تصدهم عن ان يضطهد بعضهم بعضا . وفي القرن الخامس اغرى برصوما وهو اسقف نسطوري ، ملك الفرس بان يدبر اضطهادا عنيفا للكنيسة الارثوذكسية ، وذلك باظهار نسطور بمظهر الصديق للفرس ، واظهار مبادئه بانها اكثر ميلا الى مبادئهم ويقال ان عددا يبلغ (٧٨٠٠) من رجال الكنيسة الارثوذكسية مع عدد ضخم من العلمانيين ، قد ذبحوا في هذا الاضطهاد . وقام خسرو الثاني باضطهاد اخر للارثوذكس بعد ان غزا هرقل بلاد فارس، وذلك بتحريض أحد اليعاقبة الذي اقنع الملك بان الارثوذكس سوف يظهرون بمظهر العطف والميل الى البيزنطيين ، ولكن مبادىء التسامح الاسلامي حرمت مثل هذه الاعمال التي تنطوي على الظلم، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم ، اذ يظهر لنا انهم لم يألوا جهدا في ان يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس .. مثال ذلك انه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة اقصاء السلطات البيزنطية ليسلبوا الارثوذكس كنائسهم ، ولكن المسلمين اعادوها اخيرا الى اصحابها الشرعيين ، بعد ان دلل الارثوذكس على ملكيتهم لها)) [٧٣].

((اذا نظرنا الى التسامح الذي امتد على هذا النحو الى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الاسلامي ، ظهر ان الفكرة التي شاعت بان السيف كان العامل في تحويل الناس الى الاسلام بعيدة عن التصديق. ومن ثم لم يكن بد من ان نتلمس بواعث اخرى غير ذلك الباعث الذي اوحى بالاضطهاد))[٧٤].

((اننا لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لارغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الاسلام ، او عن اي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي . ولو اختار الخلفاء تنفيذ احدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي اقصى بها فرديناند وايزابيلا دين الاسلام من اسبانيا ، او التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي مذهبا يعاقب عليه متبعوه في فرنسا ، او بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن انجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة. وكانت الكنائس الشرقية في اسيا قد انعزلت انعزالا تاما عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع انحائه احد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين. ولهذا

---

(٧٣) المرجع السابق ، ص ٨٦-٨٨.

(٧٤) نفسه ، ص ٨٨.

فان مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الان ، ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الاسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم))[٧٥].

((جلب الفتح الاسلامي الى الاقباط في مصر حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان. وقد تركهم عمرو احرارا على ان يدفعوا الجزية ، وكفل لهم الحرية في اقامة شعائرهم الدينية ، وخلصهم بذلك من التدخل المستمر الذي انوا من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني . ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس ، ولم يرتكب عملا من اعمال السلب والنهب .. وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على ان ارتداد الاقباط عن دينهم القديم ودخولهم في الاسلام على نطاق واسع كان راجعا الى اضطهاد او ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين. بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط الى الاسلام قبل ان يتم الفتح حين كانت الاسكندرية حاضرة مصر وقتئذ لاتزال تقاوم الفاتحين وسار كثير من القبط على نهج اخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة))[٧٦] ..

((ومما يدل على ان تحول المسيحيين الى الاسلام – في مصر – لم يكن راجعا الى الاضطهاد ، ما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الاصلية وهو انه في الوقت الذي شغر فيه كرسي البطرقية ، تمتع المسيحيون بالحرية التامة في اقامة شعائرهم ، وسمح لهم باعادة بناء كنائسهم بل ببناء كنائس جديدة ، وتخلصوا من القيود التي حتمت عليهم ان يركبوا الحمير والبغال ، وحوكموا في محاكمهم الخاصة ، على حين اعفي الرهبان من دفع الجزية ، ومنحوا امتيازات معينة))[٧٧].

* * *

هذه لمحات عن منطقة محدودة فحسب (هي العراق والشام ، ومصر الى حد ما) من العالم الذي امتد اليه الاسلام وتعامل معه .. فهنالك بلاد فارس وأواسط اسيا ، وافريقيا ، واسبانيا، وجنوبي اوروبا وشرقيها ، والهند والصين ، وجنوب شرقي اسيا مما تحدث عنه ارنولد فاطال الحديث .. ولن تغني الشواهد هنا عن متابعة هذا الكتاب – الوثيقة الذي يجيء على يد باحث يحترم (العلم) بالقدر الذي لم نألفه لدى عدد من الغربيين في تعاملهم مع عقيدتنا وتاريخنا الا نادرا ..

---

(٧٥) نفسه ، ص ٩٨-٩٩.

(٧٦) نفسه ، ص ١٢٣-١٢٤.

(٧٧) نفسه ، ص ١٣٠.

ومهما يكن من امر فان التاريخ البشري شهد ، في الطرف الاخر ، الكثير من محاولات القسر الفكري تحت تاثير الاغراء او الارهاب .. ابتداء بعصور اليونان والرومان ، ثم البيزنطيين والفرس ، مرورا بعصور الصراع الديني في اوروبا ومحاكم ديوان التحقيق (La Inquisicion) وانتهاء بالعصر الحديث ..

والبحث في الوقائع التاريخية التي تؤكد هذا الاتجاه وتتحدث عنه يطول هو الاخر ومن ثم سنكتفي بالاشارة الى (نموذج) واحد فحسب ، يحمل اهميته في هذا المجال ، هو ما فعلته السلطة والكنيسة الاسبانيتان مع بقايا مسلمي الاندلس بعد سقوط اخر معاقلهم السياسية : غرناطة مما قصه علينا بالتفصيل العلمي الموثوق الاستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه القيم (نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين)[٧٨] .. لكي يتبين لنا ان ما يجري اليوم من ممارسات القسر الفكري بالاعتماد على معطيات العلم والتكنولوجيا والتطور المذهل في برامج العمل وخططه ، كان يتم في الماضي بأشكال وصيغ اخرى ، وان كانت تقود في كثير من الاحيان الى النتائج نفسها : تدمير الطاقة النفسية للانسان ، وتفريغ عقيدته وقناعاته وافكاره السابقة (وملء) عقله ووجدانه بما يراد له لا بما يريد هو ان يكون ..

يصف لنا مورخ اسباني عاش قريبا من عصر المحنة الاسلامية في الاندلس ، نيات الكنيسة نحو المسلمين في قوله : ((انه منذ استولى فرديناند على غرناطة (٨٩٧هـ-١٤٩٢م) كان الاحبار يطلبون اليه بالحاح ، ان يعمل على سحق طائفة محمد في اسبانيا ، وان يطلب إلى المسلمين الذين يودون البقاء اما التنصير ، أو بيع املاكهم والعبور إلى المغرب، وانه ليس في ذلك خرق للعهود المقطوعة لهم ، بل فيه انقاذ لأرواحهم ، وحفظ لسلام المملكة ، لانه من المستحيل ان يعيش المسلمون في صفاء وسلام مع النصارى ، او يحافظوا على ولائهم للملوك ، ما بقوا على الاسلام ، وهو يحثهم على مقت النصارى اعداء دينهم))[٧٩].

ولم تكن هذه السياسة في الواقع بعيدة عما يخالج ملكي اسبانيا ، فرديناند الخامس وزوجه الملكة المتعصبة ايسابيلا الكاثوليكية ، من شعور نحو المسلمين ، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين بتامينهم في انفسهم واموالهم ، واحترام دينهم وشعائرهم ، لتحول دون تحقيق اغراض السياسة القومية. ذلك ان فرديناند لم يحجم قط عن ان يقطع العهود والمواثيق متى كانت سبيلا لتحقيق مآربه ، وان يسبغ على سياسته الغادرة ثوب الدين والورع ..

---

(٧٨) الطبعة الثانية ، مصر ، (القاهرة-١٩٨٥) ، والكتاب يمثل العصر الرابع من : مؤلف عنان المشهور : دولة الاسلام في الاندلس.

(٧٩) المرجع السابق ، ص ٢٩٦-٢٩٧.

وأخذت سياسة الارهاب تجرف في طريقها كل شيء ، ونشط ديوان التحقيق ، او الديوان المقدس ، يدعمه وحي الكنيسة وتاييد العرش الى مزاولة قضائه المدمر .. وهكذا فانه لم تمض بضعة اعوام على تسليم غرناطة حتى بدت نيات السياسة الاسبانية واضحة نحو المسلمين، وكانت الكنيسة تحاول خلال ذلك ان تعمل لتحقيق غايتها اعني تنصير المسلمين بالوعظ والاقناع ، ومختلف وسائل التاثير المادية ، ولكن هذه الجهود لم تسفر عن نتائج تذكر ، فجنحت الكنيسة عندئذ الى سياسة العنف والمطاردة ، واذعنت السياسة الاسبانية لوحي الكنيسة، ولم تذكر ما قطعت من عهود مؤكدة للمسلمين باحترام دينهم وشعائرهم ، وكان روح هذه السياسة العنيفة حبران كبيران هما الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، وراس الكنيسة الاسبانية، والدون ديجاديسا المحقق العام لديوان التحقيق ... فاغلقت المساجد ، وحظر على المسلمين اقامة شعائرهم ، فانتهكت عقائدهم وشريعتهم ... واستدعي الكردينال خمنيس الى غرناطة ليعمل على مهمة تحقيق تنصير المسلمين ، فوفد عليها في شهر تموز سنة (٩٠٥هـ) (١٤٩٩) ودعا اسقفها الدون تالافيرا الى اتخاذ وسائل فعالة لتنصير المسلمين .. وتمركزت حركة التنصير في غرناطة بالاخص في حي البيازين حيث حول مسجده في الحال الى كنيسة سميت باسم (سان سلفادور) ، واحتج بعض اكابر المسلمين على هذه الاعمال دون جدوى .. ولم يقف الكردينال خمنيس عند تنظيم هذه الحركة الارهابية التي انتهت بتوقيع التنصير المغصوب على عشرات الالوف من المسلمين ، ولكنه قرنها بارتكاب عمل بربري شائن هو انه امر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية من اهالي غرناطة وارباضها، ونظمت اكداسا هائلة في ميدان باب الرملة ، اعظم ساحات المدينة ، واضرمت النيران فيها جميعا .. وذهبت ضحية هذا الاجراء الهمجي عشرات الوف من الكتب العربية هي خلاصة مابقي من تراث التفكير الاسلامي في الاندلس[٨٠].

وما حدث في غرناطة حدث في باقي البلاد والنواحي الاخرى ، فنصر اهل البشرات والمرية وبسطة ووادي اش في العام التالي ، (١٥٠٠م) ، وعم التنصير سائر انحاء مملكة غرناطة ، على ان ذلك لم يقع دون ثورات وحركات مقاومة قدم فيها المسلمون صورا فذة للبطولة والفدائية في سبيل العقيدة .. ولكنهم كانوا عزلا وكانت جنود النصرانية صارمة شديدة الوطاة فمزقتهم بلا رافة ، وكثر بينهم القتل وسبيت نساؤهم وقضي بالموت على مناطق باسرها وحول اطفالها الى النصرانية[٨١] ..

---

(٨٠) عنان ، المرجع السابق ، ص ٢٩٧-٢٠٠.

(٨١) نفسه ، ص ٣٠٣ ، وانظر بالتفصيل (الصفحات ٣٠٤-٣٠٧).

وفي العشرين من حزيران عام (١٥٠١) ، وبتاثير من الكنيسة ، اصدر فرديناند وايسابيلا امرا ملكيا خلاصته (انه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة) فانه يحظر وجود المسلمين فيها ، فاذا كان بها بعضهم فانه يحظر عليهم ان يتصلوا بغيرهم ، خوفا من ان يتاخر تنصيرهم ، او باولئك الذين نصروا لئلا يفسدوا ايمانهم ، ويعاقب المخالفون بالموت او مصادرة الاموال ...

ومضت السياسة الاسبانية في اضطهادها المسلمين بمختلف الوسائل. وكان من الاجراءات الشاذة التي اتخذت في هذا السبيل تشريع اصدره فرديناند بالزام المسلمين في المدن بالسكنى في احياء خاصة بهم ، على نحو ماكان متبعا نحو اليهود في العصور الوسطى. ونفذ هذا التشريع في غرناطة عقب حركة التنصير الشامل ... وصدر في نفس الوقت (في ايلول سنة ١٥٠١) قانون يحرم على المسلمين احراز السلاح علنا او سرا ، وينص على معاقبة المخالفين لاول مرة بالحبس والمصادرة ثم بالموت بعد ذلك ...

وكانت السياسة الاسبانية تخشى احتشاد الموريسكيين (المسلمين المتنصرين) وتجمعاتهم في مملكة غرناطة ، ولهذا صدر في شباط سنة (١٥١٥) مرسوم ملكي اعلن في طليطلة ، وفيه يحرم بتاتا على المسلمين المتنصرين حديثا ، ان يخترقوا اراضي مملكة غرناطة، ويعاقب المخالفون بالموت والمصادرة. ونص هذا المرسوم ايضا بانه يحرم بتاتا على المتنصرين حديثا في مملكة غرناطة ، او في جهة اخرى من المملكة ، ان يبيعوا املاكهم لاي شخص دون ترخيص سابق ، ومن فعل عوقب بالموت والمصادرة ، وذلك لانه تبين ، كما ورد في المرسوم ، ان كثيرا من المسلمين المتنصرين يبيعون املاكهم ، ويحصلون اثمانها ، ثم يعبرون الى المغرب، وهنالك يعودون الى الاسلام(٨٢).

ويصف احد المؤرخين المسلمين ماساة مسلمي الاندلس بهذه الكلمات المؤثرة ((ثم بعد ذلك دعاهم (اي ملك قشتالة) الى التنصير ، واكرههم عليه وذلك في سنة اربع وتسعمائة، فدخلوا في دينهم كرها ، وصارت الاندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول (لا اله الا الله محمد رسول الله) الا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس. وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الاذان ، وفي مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن. فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين لم يقدروا على الهجرة واللحوق باخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل نارا ودموعهم تسيل سيلا غزيرا ، وينظرون الى اولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمر التي هي ام الخبائث

(٨٢) نفسه ، ص ٣٠٨-٣١٠.

والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم .. ومن فعل ذلك عوقب اشد العقاب ، فيالها من فجيعة ما امرها ومصيبة ما اعظمها ..))[٨٣].

ويصف المقري كيف ان من أظهر التنصير من المسلمين كان لا يستطيع ان يمارس عبادته الاسلامية الا خفية .. وكيف ((شدد عليهم النصارى في البحث حتى انهم احرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة عن غيرها من الحديد ...))[٨٤].

ونريد الآن ان نعرف شيئا عن اجراءات ديوان التحقيق ، تلك الاداة الرهيبة التي استخدمت لابادة المسلمين واستئصال شافة الاسلام في الساحة الاندلسية.

تبدأ قضايا الديوان ، او محاكماته الفرعية ، بالتبليغ او ما يقوم مقامه ، كورود عبارة في قضية منظورة تلقي شبهة على احد ما ، ولا فرق بين ان يكون التبليغ من شخص معين او يكون غفلا. ففي الحالة الاولى يدعى المبلغ ويذكر اقواله وشهوده ويعتبر ذلك تحقيقا تمهيديا ، كذلك يمكن التبليغ بواسطة (الاعتراف) الذي يتلقاه القسس ، ولهم ان يبلغوا عما يقعون عليه من حالات الاشتباه في العقائد ، وذلك بالرغم مما يقتضيه الاعتراف من الكتمان ، ويقسم المبلغون الشهود يمينا بالكتمان ولا توضح لهم الوقائع التي يسالون عنها بل يسالون بصفة عامة عما اذا كانوا قد راوا او سمعوا شيئا يناقض الدين الكاثوليكي او حقوق الديوان. ويقوم الديوان في الوقت نفسه باجراء التحريات السرية المحلية عن المبلغ ضده. ثم تعرض نتيجة التحقيق التمهيدي على (الاحبار المقررين) ليقرروا ما اذا كانت الوقائع والاقوال المنسوبة الى المبلغ ضده تجعله مرتكبا لجريمة الكفر او تلقى عليه فقط شبهة ارتكابها. وقرارهم يحدد الطريقة التي تتبع في سير القضية. وكان معظم اولئك المقررين من القسس الجهلاء المتعصبين ، ومن ثم فقد كانت أخلاقهم وأراؤهم ، بل ذمتهم وشرفهم ، مثارا للريب ، وكان رايهم الادانة دائما الا في أحوال نادرة.

((وعلى اثر صدور هذا التقرير ، يصدر النائب امره بالقبض على المبلغ ضده وزجه الى سجن الديوان السري. وكانت سجون الديوان المخصصة لاعتقال المتهمين بالكفر او الزيغ، وهي المعروفة بالسجون السرية ، غاية في الشناعة ، تتصل مباشرة بغرف التحقيق والعذاب ، عميقة مظلمة رطبة تغص بالحشرات والجرذان ، ويصفد المتهمون بالاغلال. ويقول لورنتي مورخ ديوان التحقيق الاسباني ان افظع مافي امر هذه السجون هو ان من يزج اليها ، يسقط في الحال في نظر الراي العام ، وتلحقه وصمة لا تلحقه من اي سجن اخر مدني او ديني ، وفيها

---

(٨٣) أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر ، (الصفحات ٥٤-٥٦) (تحقيق ميللر ، غوتنغن سنة١٨٦٣).
(٨٤) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ٦١٦/٢ ، ٦١٧ (طبعة بولاق).

يسقط في غمار حزن لايوصف وعزلة عميقة دائمة ، ولا يعرف الى اي مدى وصلت قضيته ، ولا ينعم بتعزية مدافع عنه. ويقول الدكتور لي : كانت املاك السجين كلها تصادر وتصفى على الفور ، وتقطع جميع علائقه بالعالم حتى تنتهي محاكمته ، وتستغرق المحاكمة عادة من عام الى ثلاثة لا يعرف السجين او اسرته خلالها شيئا عن مصيره ، وتدفع نفقات سجنه من املاكه المصفاة وكثيرا ما تستغرقه المحاكمة.

ولا يخطر المتهم بالتهم المنسوبة اليه ،ولكنه يمنح عقب القبض عليه ثلاث جلسات في ثلاثة ايام ، تعرف بجلسات الراي او الانذار ، وفيها يطلب اليه ان يقرر الحقيقة ويوعد بالرافة اذا قرر وفق ما ينسب اليه ، وينذر بالشدة والنكال اذا كذب او أنكر ، لان (الديوان المقدس) لا يقبض على احد دون قيام الادلة الكافية على ادانته ، وهي طريقة غادرة محيرة . فاذا اعترف المتهم بما ينسب اليه ولو كان بريئا ، اختصرت الاجراءات وقضي عليه بعقوبة اخف، ولكنه ، اذا اعترف بانه كافر فانه لا ينجو من عقوبة الموت مهما كانت الوعود التي بذلت له بالرافة والعفو. فاذا ابى المتهم الاعتراف بعد الجلسات الثلاث ، وضع النائب له قرار الاتهام طبقا لما ورد في التحقيق من الوقائع ، وذلك مهما كانت الادلة المقدمة من الركاكة والضعف. بيد ان افظع ما يحتويه القرار هو احالة المتهم على التعذيب ، وغالبا ما يطلب النائب هذه الاحالة، وذلك بالرغم من اعتراف المتهم بما ينسب اليه ، لانه يفترض دائما انه اخفى او كذب في اعترافه. وتصدر المحكمة قرار التعذيب مجتمعة بهيئة غرفة مشورة.. وقد نوه كثير من المؤرخين بروعة الاجراءات والوسائل التي كانت تلجا اليها محاكم التحقيق في توقيع العذاب ويعلق عليها (دون لورنتي) بقوله : (لست أقف لأصف ضروب التعذيب التي كان يوقعها ديوان التحقيق على المتهمين ، فقد رواها بما تستحق من الدقة كثير من المؤرخين . ولكني اصرح ان احدا منهم لا يمكن ان يتهم بالمبالغة فيما روى. ولقد تلوت كثيرا من القضايا فارتجفت لها اشمئزازا وروعا ، ولم ار في المحققين الذين التجأوا الى تلك الوسيلة الا رجالا بلغ جمودهم حد الوحشية)..

وكان معظم انواع التعذيب المعروفة في العصور الوسطى ، تستعمل في محاكم التحقيق، ومنها تعذيب الماء ، وهو عبارة عن توثيق المتهم فوق اداة تشبه السلم ، وربط ساقيه وذراعيه اليها مع خفض راسه الى اسفل ، ثم توضع في فمه من زلعة جرعات كبيرة ، وهو يكاد يختنق ، وقد يصل ما يتجرعه الى عدة لترات. وتعذيب (الجاروكا) وهو عبارة عن ربط يدي المتهم وراء ظهره ، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ، ورفعه وخفضه معلقا ، سواء بمفرده او مع اثقال تربط معه. وتعذيب الاسياخ المحمية للقدم ، والقوالب المحمية للبطن والعجز ، وسحق العظام بآلات ضاغطة ، وتمزيق الارجل ، وفسخ الفك ، وغيرها من الوسائل البربرية المثيرة.

ولم يك ثمة حدود مرسومة لروعة التعذيب والآمه .. ولا يحضر التعذيب سوى الجلاد والاحبار المحققين والطبيب اذا اقتضى الامر ، ولا يخطر المتهم باسباب احالته على التعذيب ، ولايسال ليقرر وقائع معينة ، بل يعذب ليقرر ما شاء .. وقد يامر الطبيب بوقف التعذيب اذا راى حياة المتهم في خطر ، ولكن التعذيب يستانف متى عاد المتهم الى رشده او جف دمه. فاذا اعترف المتهم واعتبر القضاة اعترافه صحيحا ، بمعنى انه يتضمن عنصر التوبة ، كف عن تعذيبه ، واذا استطاع المتهم احتمال العذاب واصر على الانكار ، لم يفده ذلك شيئا ، لان القضاة يتخذون غالبا من الوقائع المنسوبة للمتهم ادلة على الادانة ويحكم عليه طبقا لهذا الاعتبار. ويجب ان يؤيد المعترف ما قاله وقت التعذيب ، باعتراف حر يقرره في اليوم التالي ، وذلك حتى يؤكد صحة الاعتراف ، فاذا انكر او غير شيئا اعيد الى التعذيب.

وبعد انتهاء التعذيب يحمل المتهم ممزقا داميا الى قاعة الجلسة ليجيب عن التهم التي توجه اليه لاول مرة .. وبعد المرافعة والاستجواب تحال القضية على الاحبار المقررين ليبدوا فيها رايهم تمهيدا للحكم النهائي ، وقلما كان قرار الاحبار يختلف عن قرارهم الاول .. فاذا ما قضي عليه – اخيرا – بالادانة فان الحكم لا يبلغ الى المتهم الا عند التنفيذ ، وهو اجراء من اشنع الاجراءات الجنائية التي عرفت ، فيؤخذ المتهم من السجن دون ان يدري مصيره الحقيقي ويجوز الرسوم الدينية التي تسبق التنفيذ .. ثم يوخذ الى ساحة التنفيذ وهنالك يتلى عليه الحكم لاول مرة، وقد يكون في حالة التهم الخطيرة بالسجن المؤبد والمصادرة او بالاعدام حرقا في حالة (الكفر الصريح) .. وكانت احكام الاعدام هي الغالبة في عصور الديوان الاولى ، وكان التنفيذ يقع في ساحات المدن الكبيرة وفي احتفال رسمي يشهده الاحبار والكبراء باثوابهم الرسمية ، وقد يشهده الملك. وكان يقع على الاغلب جملة فينفذ حكم الحرق في عدد من المحكوم عليهم قد يبلغ العشرات احيانا ، وينتظم الضحايا في موكب كان يعد على شناعته من الحفلات العامة التي تهرع لشهودها جموع الشعب. ومما يذكر في ذلك ان فرديناند الكاثوليكي كان من عشاق هذه المواكب الرهيبة ، وكان يسره ان يشهد حفلات الاحراق وكان يمتدح الاحبار المحققين كلما نظمت حفلة منها.

وكان قضاء محاكم التحقيق بطيئا يبث الياس في النفوس .. وقد يموت المتهم في سجنه قبل ان يصدر الحكم في قضيته .. وكان اثر الاحكام الصادرة بالادانة يتعدى المحكوم عليه الى اسرته وولده فيقضى بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة، وبذا يؤخذ الابرياء بذنب المحكوم عليه))[٨٥].

---

(٨٥) انظر عنان : المرجع السابق ، ص٣١٦-٣٢١ ، (وكذلك المصادر الاسبانية التي اعتمد عليها والمثبتة في هوامش الصفحات المذكورة).

((وكان اعضاء محاكم التحقيق يتمتعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق تنحني امامه أية سلطة .. وكان من جراء هذه السلطة المطلقة ، وهذا التحلل من كل مسؤولية ان شاع في هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة ، والقبض على الابرياء دون حرج ، بل كثيرا ماوجد بين المحققين رجال من طراز اجرامي لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وغيرها لملء جيوبهم ، وكانت احكام الغرامة والمصادرة اخصب مورد للاختلاس ، وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الالوف من هذا المورد ، هذا بينما يموت اصحاب هذه الاموال الطائلة في السجن جوعا .. لا بل ان بعض المحققين كانوا يمارسون اغتصاب البنات والزوجات دون ان تمسهم يد او ينالهم عقاب ...))[٨٦].

***

ذلك ما فعلناه عندما قدنا العالم .. وهذا مافعله اعداؤنا عندما اتيح لهم ان يتسلموا (السلطة) ..

في الاولى كان (الدين الحق) قد وضع العقل البشري وقيم الاختيار والحرية في اعز مكان .. وفي الثانية داسها (ادعياء الدين) بالاقدام ..

ان الفارق بين الصفحتين هو الفارق بين الانسان المتحضر ، المهذب ، الذي يبعثه الدين القيم .. وبين الادمي المتخلف ، المتوحش ، الذي يرتكس به التعصب الاعمى ..

ورغم هزيمتنا وانتصارهم فان (شرف الانسان) ما كان يمكن ان يكون لولا القيم المتألقة التي صنعها الاسلام ..

ولنتصور كيف سيكون التاريخ البشري لو تسلمت قيادته يوما مؤسسات كمحاكم التحقيق .. أفيكون فيه للانسان الحر ، الكريم ، ايما مكان في العالم ؟

((**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٥٦)اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**))[٨٧].

فليس ثمة طريق ثالث .. إما الله والنور .. وإما الطاغوت والظلمات .. اما الايمان والحرية .. واما الكفر والعبودية ..

---

(٨٦) المرجع السابق ، ص ٣٢٢.

(٨٧) البقرة ، (الآيتين٢٥٦-٢٥٧).

فان لم نؤمن بالله .. ونكفر بالطاغوت .. بالرفض .. وبالكلمة .. وبالحركة .. فان (محاكم التحقيق) تنتظرنا ..

تأخذ بزمام السلطة والقيادة في العالم ..

وترجع بنا الى الظلمات ..

حين يتساقط الوضعيون

– ١ –

إن نسبية الفكر الغربي ، وقلقه ، وتارجحه ، وعدم استناده على ارضية ثابتة من اليقين والعلم ، تجعل صنما فكريا من صنميات اوروبا وواضع اسس الفلسفة الوضعية : (اوغست كونت) يتخذ ، بسبب من دوافعه الذاتية التي لاتقوم على اي اساس موضوعي ، موقفين متناقضين من المراة !

ففي رسالة بعنوان ((رسالة فلسفية في التذكار الاجتماعي)) يبعث بها اوغست كونت الى محبوبته (كلوتيلد دي فو) يغير رايه في المرأة ومكانتها الاجتماعية تغييرا تاما !! ((فقد كان منذ اشهر يكتب الى تلميذه (ستورات ميل) فيرى أنه ليس في المرأة أمل ولا خير ، اما الان فهو يرى المرأة عنصرا أساسيا في الاصلاح الاجتماعي الذي وقف نفسه عليه))[٨٨] [٨٨].

والسبب في هذا الانقلاب الفجائي من النقيض الى النقيض هو انه في الاولى كان يحب امرأة قبلت الزواج منه ولكنها خدعته فدفعته الى محاولة الانتحار والالتحاق بمستشفى المجانين حينا من الدهر ، وفي الثانية احب فتاة لم يتح له الزواج بها لكنها منحته نفسها واحبته حبا صادقا !!

ونقارن هذا العبث بالموقف الديني من المرأة .. الموقف الثابت الواضح المنبثق عن علم الهي محيط بتكوين هذا الجنس وخصائصه ووظائفه المناسبة ، فنراه شاسعا هائلا ، ونرى الذين يتجاوزونه صوب الاحكام النسبية المتغيرة كاحكام (كونت) اياها ويريدون أن يتعاملوا على أساسها المتقلب مع المرأة ، يستحقون الرثاء والازدراء !

واذا كان موقف (كونت) مؤسس واحدة من اشد الفلسفات اهمية وانتشارا في اوروبا يغير رأيه بسبب دوافع ذاتية صرفة ، وفي واحدة من المسائل الاساسية في الحياة البشرية : المرأة، فكيف يرجى لفلسفته ان تمنح اليقين لتلامذتها والمعجبين بها ، بل كيف نفسر تحولها ، وغيرها كثير من الفلسفات البشرية العاجزة الى مايشبه الدين الذي ينحني الغربيون لمسلماته ويعتقدون انه الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ الا ينسحب الامر على معظم الفلسفات والعقائد الوضعية ان لم نجارف فنقل : كلها !

---

(٨٨) طه حسين : ألوان ، ص ١٥٤ ، (دار المعارف ، القاهرة–١٩٥٨).

– ٢ –

اليكم مثلا آخر : (سيسرون) الخطيب والاديب والسياسي الروماني المعروف (الذي قتل سنة ٤٣ ق.م) .. كان الاوروبيون ينظرون اليه عبر قرون واجيال متطاولة ، وحتى العصر الحديث ، نظرة اعجاب يبلغ حد التقديس لشخصية تكاد تتميز بالكمال فلا يعتورها اي نقص على الاطلاق !

((لقد نشاوا – كما يقول طه حسين – على أن سيسرون هو الصورة الصادقة للجد الذي ليس بعده جد ، والحزم الذي ليس بعده حزم ، والارتفاع عن صغائر الامور ، والتنزه عما يشين رجل الصدق ، وهو الذي تولى منصب القضاء الاعلى في الجمهورية فكان انزه القضاة واعفهم ، وتولى رياسة الجمهورية فكان حازما صارما .. سديد الراي .. وتولى الحكم في احد الاقاليم فكان مثالا ممتازا للنزاهة والعدل والصرامة .. واشتغل بالمحاماة فكان افصح المحامين لسانا ، وامضاهم حجة ، وارحمهم للضعيف ، وأرأفهم بالمظلوم .. وقد قاوم الدكتاتورية والطغيان والاستبداد بيده ولسانه وقلبه ، ولقي حتفه في هذه المقاومة حين ائتلف الطاغيتان ، أنطونيوس وأوكتافيوس وهدرت بهذا الائتلاف دماء كثير من اعلام الجمهورية))[٨٩].

ولكن الأستاذ (جيروم كاركوبينو) عضو المجمع العلمي الفرنسي ومدير مدرسة المعلمين العليا في باريس – سابقا – يعرض على الفرنسيين والاوروبيين عموما ، في كتاب كبير ذي مجلدين ، عمل على تأليفه السنين الطوال ، وتميز بدقة البحث وعمق الاستقصاء : صورة عن سيسرون تختلف عما الفه المعجبون !

فاذا بالرجل يبدو على حقيقته : ((سياسيا متقلبا مسرفا في التقلب انفق حياته كلها ملتمسا لمنفعته الخاصة القريبة الحقيرة ، مخادعا للناس عن نفسه وعن ارائه وعن سيرته ، فهو يزعم انه انقذ الجمهورية حين كان رئيسا لها من خطر الثورة ، مع ان كتبه الخاصة تعترف عليه بانه كان صديقا لكاتلينا زعيم الثورة ، ولم يهاجمه الا حين عجز عن ان ينتفع به. وهو يزعم انه كان نصيرا للنظام الجمهوري حين ظهر يوليوس قيصر ولكن كتبه الخاصة تعترف عليه بانه تقرب الى قيصر حتى ظفر منه بالعطف والعفو والامن ، وظل يتملقه ما استقامت له الامور ، فلما قتل شمت بقتله وابتهج لموته ، وظاهر قاتليه . وهو يزعم انه نصير للنظام الجمهوري بعد مقتل قيصر ولكن كتبه الخاصة تعترف عليه بانه تملق انطونيوس ماوسعه التملق وتملق اوكتافيوس ما وجد الى تملقه سبيلا ، فاذا كان الرجلان قد قتلاه لانه تنكر لهما قبل ائتلافهما فهما لم يزيدا على ان قتلا خصما سياسيا كاد لهما والب عليهما بعد ان كان لهما صديقا يبتغي الى مودتهما الوسائل. فحبه للنظام الجمهوري كذب اذن لانه لا يحب الا نفسه ولم يبتغ الا

---

(٨٩) المرجع السابق ، ص ٢٦٧.

منفعته. واخلاقه لم تكن ذات خطر فقد كان شرها الى المال تعترف عليه كتبه بانه ارتشى من قيصر اولا ومن غير قيصر ثانيا وبانه ملك في روما وفي خارج روما ثماني عشرة دارا من تلك الدور الفخمة التي كان الاغنياء الرومانيون يملكونها. وهو يطلق امراته التي عاشت معه خمسة وثلاثين عاما .. لسبب واحد وهو ان امراته لم تمكنه من ثروتها حين احتاج الى هذه الثروة .. وهو يدفع ابنته الى الزواج والطلاق ثلاث مرات عشقا للمال وحده حتى تموت البائسة حزنا .. ثم هو يزعم انه كان رجلا شريفا في سيرته السياسية وفي كل ما يتصل بالانتخاب خاصة ولكن كتبه تشهد عليه بان سياسته لم تكن الا مداورة ومصانعة ، وانه كان يصطنع من افساد الانتخاب برشوة الناخبين واخذ اصواتهم بالترغيب مرة وبالترهيب مرة اخرى ، ما كان يصطنعه غيره من المرشحين لمناصب الدولة .. الخ ..))[٩٠].

وجدير بالذكر ان مؤلف الكتاب جيروم كاركوبينو انما اعتمد في كشف القناع عن الوجه الحقيقي لسيسرون على رسائل سيسرون نفسه الى صديق عمره الزعيم ورجل المال والمثقف الروماني : اتيكوس ! ومن الذي قام بنشر هذه الرسائل الشخصية (الخاصة جدا) ففضح بذلك صديقه العزيز واظهره على حقيقته ؟

إنه اتيكوس نفسه !

لماذا ؟

-٣-

الجواب يكمن في (فلسفة) اخرى راجت في اوروبا عبر العصور ، ووجدت لها جيشا من الاتباع والعباد والمعجبين الذين اتخذوها من دون العقائد والاديان ، عقيدة ودينا !

الابيقورية !

كيف تبيح هذه الفلسفة ، او العقيدة الوضعية ، ان يخون صديق صديقه وان يعريه امام الاجيال باطلاعهم على رسائل كان الرجل يريدها سرا خالصا بينه وبين صديقه ؟

لنرجع الى بداية القصة علنا نعرف الاسباب ..

((كان اتيكوس قد احب مذهب ابيقور واتخذه لنفسه دينا ، وتأثرت به حياته العقلية ، كما تاثرت به سيرته اليومية أشد التاثر واقواه. والقراء يعلمون ان اخص مايمتاز به مذهب ابيقور من الناحية الخلقية ، هو ان يجعل اللذة غاية الغايات للانسان ، ويرى ان هذه اللذة لا تخلص ولا تستقيم لطلابها الا اذا برئت من الالم ، فلم تعقبه ولم تورط فيه .. ومذهب ابيقور يمتاز كذلك بانه حرر الانسان من خوف الموت وما يمكن ان يكون بعد الموت. فالالهة لا يحفلون بالانسان ولا يسالونه عن عمله ولا يجزونه بالخير خيرا ولا بالشر شرا ، وانما الانسان

---

(٩٠) المرجع السابق ، ص ٣٧٥-٣٧٦.

مسؤول عن نفسه امام نفسه اثناء الحياة ، فاذا ادركه الموت فقد عاد الى العدم الذي خرج منه حين دخل الحياة. واذن فليس للانسان الا ان يفكر في حياته هذه التي يحياها ، يلتمس فيها لنفسه الخير والمنفعة ، ويصرف فيها عن نفسه الشر والمضرة ما استطاع الى ذلك سبيلا. والصدافة نفسها عرض من اعراض هذه الحياة ، لا تلتمس لنفسها وانما تلتمس لما تتيح للانسان من لذة ومنفعة ، وهو خليق ان يجتنبها ويتخلص منها ان عرضته لشر او ضر، وهو خليق الا يحفل بها ولا يلتفت اليها ان لم تغن عنه شيئا))[٩١].

– ٤ –

صورة بشعة حقا للعلاقات البشرية وهي تتميع بهذا الشكل المفجع وتفتقد اية قيمة ثابتة تستند اليها وتمنحها الديمومة والاستمرار ..

والانكى من هذا ان تفككا رهيبا كهذا يصيب وجه الحياة البشرية بالدمامل والبثور ، ويقتل وجهها المضيء الجميل ، انما يجد تبريره العقلي في فلسفة مامن الفلسفات البشرية المعوجة القائمة على الميل والظن والهوى. وما دام ان الفكر الوضعي لا يمكن – بحال – ان يتحرر من الميول والظنون والاهواء ، فانه سيظل يلد فلسفات قاتمة كهذه ، سيئة الى الحد الذي يقف بصراحة ، بل بوقاحة ، امام تفرد الحياة البشرية ، ونقائها ، وسعيها الجاد صوب الاحسن والارقى ، ويرغمها على ان تمارس العلاقات بصيغها اللاانسانية كما يحدث في المجتمعات الحشرية سواء بسواء ..

وهكذا فان الفلسفة البراغماتية (الذرائعية) التي انبجست في امريكا ليست شيئا جديدا على خارطة الفكر الوضعي ، كما ان (الوضعية) و(الفرويدية) و(الداروينية) وحتى (الماركسية) من قبلها ليست شيئا جديدا.

– ٥ –

ان (ابيقور) قاعد هناك في خلايا المخ وحجيرات الدماغ ، ومالم يتحرر العقل الاوروبي ، بالدين الحق وحده ، من اسر الميول والظنون والاهواء ، فان ابيقور سيظهر الف مرة اخرى مرتديا حينا ثياب عالم نفس تحليلي كفرويد ، او عالم حياة كداروين ، او اجتماع واقتصاد ككونت وماركس ..

---

(٩١) المرجع السابق ، ص ٣٧٣.

وسيظل الزوج يخدع بزوجته ، والزوجة تخون زوجها ، والصديق الحميم يغدر بصديقه، ما دام ان هؤلاء جميعا يجدون في (الفلسفة) اسنادا لافعالهم القبيحة تلك ، وتبريرا لممارساتهم الموجهة ضد (الانسان) ابتداء ..

-٦-

فما الذي دفع اتيكوس الى خيانة صديقه سيسرون والكشف عن رسائله الشخصية التي مزقت القناع عن وجهه ومرغت قدسيته في الوحل ، واعطت للامبراطور الروماني اوكتافيوس المبرر لقتله ؟

انها الابيقورية .. كيف ؟ لنقرأ : ((كانت الصداقة التي ادخرها اتيكوس لخليله الوفي الحميم سيسرون صداقة قوية متينة ماجلبت له نفعا ولذة ، وكان سيسرون مصدرا للذة والنفع جميعا ..))[٩٢].

فلما استأثر اوكتافيوس مع انطونيوس بالسلطان الروماني توثقت الصلات بين عظيم السياسة الرومانية واتيكوس عظيم المال الروماني ، وتجاوز الامر حدود الصداقة الى المصاهرة، وازدادت الوشائج قوة ، ووجد اتيكوس نفسه يندفع الى نشر الرسائل الخاصة التي كتبها اليه سيسرون ، فيسقط الاقنعة عن وجه صديقه القديم في سبيل ان يمنح صديقه الجديد المبرر لمقتل سيسرون ولما يجف بعد دمه !

كما انه يمنح – لحسن الحظ – باحثا مدققا مثل كاركوبينو لكي يعتمد على هذه الرسائل في كتابه عن سيسرون فيسقط بذلك واحدا من الاصنام الكثيرة التي استعبدت العقل الاوروبي طوال قرون ..

-٧-

وهكذا .. فاذا خان زوج زوجه وخدع صديق صديقه فان الجواب عند ابيقور ، واذا غدر شعب بشعب وذبحت طبقة طبقة اخرى كان الجواب عند هيغل وماركس ، واذا تجاوز انسان ما حدود المحرمات ففسق بها ، وجد في فرويد محاميا قديرا على تبرئة ساحته.

عشرات بل مئات من الالهة والارباب المزيفة ، ومن الاصنام المبعثرة على قارعة كل طريق ، كانت – وستظل – تحكم عقل الانسان وتتحكم في وجدانه وروحه في كل زمن ومكان.

ولن يتحرر الانسان – بحق – الا بالدين القادم من عند الله ، العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ، المهيمن الذي لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء ، الخبير الذي يعلم من خلق وهو بكل خلق عليم.

---

(٩٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٣.

ولـيس ثمـة بعـد الـدين الحـق ، الا مـا قالـه القرآن الكـريم بكلماتـه المعجـزة فاختصـر بـه مأساة الحياة البشرية ، ومنحها – في الوقت نفسه – الطريق الذي يخرج بها الى بر الامان الوضيء ، النظيف ، السعيد :

((**إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى**))[٩٣].

وصدق الله عظيم.

(٩٣) سورة النجم ، (آية ٢٣).

حول الاجتهاد :

الضرورات والحوافز

ووسائل التحقيق

تطرح هذه الصفحات الموجزة (التي قدمت الى الملتقى الاسلامي السابع عشر في الجزائر – تموز ١٩٨٣م) بعض الملاحظات التي قد يبدو الكثير منها من قبيل البديهيات ، ولكنها من النوع الذي قد تؤدي شدة ظهوره الى خفائه ، ومن ثم تجيء الحاجة الى التاكيد عليها، او اعادة عرضها ، لتكون في دائرة الضوء. وهي ملاحظات تطرح نفسها بقدر من التركيز والتجريد الضرورين في مناسبة كهذه ، فما هي الا محاولة لرسم هيكل عمل وعرض مبرراته ، وليست بحثا اكاديميا يستلزم التهميش والتنصيص والاستشهاد.

حتمية الاجتهاد :

ان الاجتهاد جزء اصيل من الالتزام .. او هكذا يجب ان يكون .. فالمسلم – فردا وجماعة – لا يكفيه ان يصلي ويصوم ويزكي .. ولا يكفيه ان ينفذ مقولات عقيدته وشريعته الاسلاميتين في واقع حياته اليومي .. لا يكفيه ان يثور ويقاتل ويستشهد .. هذه كلها جوانب من التزامه بالعقيدة التي آثر الانتماء اليها .. ولكن ثمة مالا يقل عنها اهمية ، وان كان من قبيل (فرض الكفاية) الذي قد تتحمل تنفيذه هذه الجماعة او تلك من المسلمين : حمل المعطيات الاسلامية بالفعل الاجتهادي ، الى افاق الزمن والمكان .. تحكيمها في صيرورة الحركة التاريخية .. وضعها في مركز الشاهد على كل صغيرة وكبيرة .. تمكينها من ممارسة الزامها الدائم في كل تجربة وكل مرحلة .. جعل (الاسلامية) الحكم الهادي والموجه والدليل الذي يعلم ويرشد ، بل يبني ويصوغ بالمادة الاسلامية الاصيلة كل ما يقوم على ساحة الحياة من عمارات ومؤسسات ، وكل ما يمارس فيها من انشطة وفاعليات ..

حتى مدننا وشوارعنا ودورنا وأماكن ترفيهنا يتوجب ان (نجتهد) في ان تكون امتدادا لرؤيتنا الاسلامية .. لفكرنا ووجداننا الايماني ، وذوقنا الذي يميل دائما الى ان يربط المنظور بالغيب ، والتراب بالحركة ، والارض بالسماء ..

واذا كانت المنائر الممتدة الى السماء اشارة فذة الى قدرة الفنان المسلم على ابتكار المعمار الذي ينبثق من تصوره ويقوم على ارضية ايمانه وفكره .. فان حياتنا المعاصرة كلها يتوجب ان تنبثق فيها (الاشارات) التي تجتهد ان تحمل دلالتها على كل ماهو اسلامي ، وان يتغلغل الالتزام الديني في سداها ولحمتها ويكون نولها الذي يمنح نسيجها هذا الشكل او ذاك ..

وكما ان اي مهندس او طبيب لا يستطيع ان يستقل بعمله الا بعد استكمال ادوات العمل ومهارات التخصص وخبراتهما ، وكما انه ليس لرجل اعتيادي او مريض الا ان يستشيرهما بصدد بناء بيت او علاج مرض .. كذلك موقف ((المسلم)) ازاء المسائل الفقهية والقضايا التشريعية.

انه ليس تقليدا ذلك الذي يمارسه المسلم ((المسؤول)) في مسائل حياته جميعا ، وهو يرجع الى معطيات ابي حنيفة ، او الشافعي ، او مالك ، او ابن حنبل ، او غيرهم. وليس تقليدا ذلك الذي يعمله المسلم وهو يستفتي ، في اية مشكلة تعرض له ، هذا الفقيه او العالم ، او ذاك.

ليس تقليدا ولكنه شعور بالمسؤولية ، وتقدير لموقع الانسان في خارطة المجتمع ، واحترام ملزم لشريعة الله .. فليس في مقدور اي مسلم عادي ، قبل ان يستكمل ادوات التعامل مع الله ، ويتمكن من خبرات الاجتهاد ، ويحيط علما بمقاييس الاستنباط والمناظرة والتفريع ، ان يشترع على هواه ، وان يصدر الاحكام كما يشتهي ، وان يفتي لنفسه وللناس بما يرتئيه.

ولو جاز لكل انسان ان يمارس مهنة الطب او الهندسة دون ان يدرس شيئا عنهما ، بل دون ان يستكمل سائر ضرورات التخصص في حقولهما المختلفة ، لجاز للمسلم العادي ان يجتهد في امور دينه دون ان يلزم نفسه بالرجوع الى احد الاساتذة او الشيوخ المتخصصين في مسائل الاجتهاد والتشريع ، اولئك الذين افنوا اعمارهم وهم يضربون في بحر الضرورات العلمية التي تفرضها مهمة ((الاجتهاد)) الشاقة العسيرة ، على كل الراغبين في اقتحام خضمها العميق.

ان الدور الكبيرة التي يبنيها اناس لاخبرة لهم بمسائل الهندسة المدنية ستنهار على رؤوس اصحابها يوما .. والامراض الخطيرة التي يعالجها رجال لايعرفون عن الطب شيئا ستؤول بالذين يعانون منها الى الدمار .. والموت .. وكذلك تخرج الشريعة عن اهدافها ، وتنزع عنها ملامحها ، وتنشق عن شخصيتها وتميزها ، عندما تغدو لعبة ميسورة في ايدي كل الناس ، يعملون فيها – على هواهم – بمشارطهم كي يستخرجوا منها حلا لمشكلة عويصة او فتوى لوضع اجتماعي معقد ، وما اكثر المشاكل والاوضاع المستجدة في عالم لايكف عن الحركة والتمخض.

ان ثمة نوعين من الرجال يدعواننا الى ان نتخذ هذا الموقف من شريعة الاسلام .. هذا التعامل المجاني السهل ، الرخيص ، مع منهاج الله .. ساذج او خبيث ..

ساذج يتصور ان اخراج الاسلام عن عزلته المعاصرة لايتم الا بتحويل كل المسلمين الى مجتهدين ، وتوزيع شهادات التخصص عليهم ، دون ان يدرك ان ((العزلة)) ليست في هذا، وانما في حجب الاسلام عن التعامل مع الحياة الواقعة على كل المستويات في عالمنا الراهن. ((التعامل)) الذي هو المحفز الطبيعي لمجابهة مشاكل الحياة والمجتمع ، بالاجتهاد العلمي ، الواقعي ، المسؤول ..

وخبيث يدرك جيدا انه متى تحول المسلمون جميعا الى ((مجتهدين)) فقدت الشريعة صلابتها ، وقوتها ، وتماسكها ، وانسلخت عن شخصيتها وملامحها وتميزها ، وتفتتت قواعدها شيئا فشيئا .. لكي ما تلبث ان تندمج في مجرى الحياة الصاخب ، وتتفكك .. وتذوب ..

وفي مقابل هذا الرفض المسؤول الذي يتوجب ان يكون عليه المسلمون تجاه قضية التشريع ، فان ثمة رفضا اخر يتحتم عليهم : الا تتوقف حركة الاجتهاد .. ان تظل مدارسها تعمل ، ورجالاتها المتخصصون يتخرجون ، ومشايخها واساتذتها يزدادون خبرة ، ومقدرة ، ونشاطا ..

اننا اذا قدرنا على ان نتصور مجتمعا حيويا متطورا يخلو كلية من مهندس او طبيب ، ثم يصل الى اهدافه ببساطة ، جاز لنا ان نتصور مجتمعا اسلاميا حركيا يخلو من مشرع او مجتهد ، ثم يصل الى اهدافه التي علمنا اياها الله ورسوله ..

انهما حدان قاطعان كالسكين ، ان نتحول جميعا الى مجتهدين ، او ان لا يكون في مجتمعاتنا المعاصرة اي مجتهد على الاطلاق ..

ان الاجتهاد هو حماية للاسلام من : التيبس والتسيب .. وهذه مسالة بديهية .. ولكن ثقل الواقع كاد ان يطمس عليها .. اننا منذ قرون لانمارس الاجتهاد ، فكاننا قد اخترنا اسلوب العمل بصيغة بديهية مضادة قد لا يقبلها اي مسلم على الاطلاق : ترك الممارسة تصاب بتصلب الشرايين او بالرخاوة والتوسع والانفلات.

إن الاسلام حركة باتجاه (التوافق) مع سنن الوجود والعالم ، وايقاع الكون والطبيعة، فاحرى به ان يكون متحققا بالوفاق مع نفسه .. اي بعبارة ادق ان يكون كل تعبير اسلامي ، في هذا الجانب او ذاك من الحياة ، وازاء هذه القضية او تلك من قضايا الوجود والعالم .. يحمل ايقاعه المتوحد مع سائر التعابير عن الجوانب الاخرى من الحياة ، والقضايا المتنوعة من الوجود والعالم.

نسيج وحده .. هكذا يجب ان ينزل الفعل الاسلامي المتفرد ، المتميز ، الى العالم ، ايقاع متوحد ، وتوافق منظور ، وتناغم شامل بين كل جزئيات الفعل واطرافه .. فان لم يعن الفعل الاجتهادي على تحقيق هذا التوحد والتوافق والتناغم بين المعطيات والتعابير الاسلامية ، وبينها وبين العالم ، فمن يتولى هذه المهمة ؟ الا يخشى ان يؤول الامر بالممارسة الى التشتت والتصادم والتغاير ، وان تخرج عن ايقاعها المتوحد وتناغمها الموزون الى النشاز والتبعثر ، وتفقد شخصيتها وسماتها المتميزة ؟

ان الاجتهاد هو ، بشكل من الاشكال ، تنفيذ لمهمة مزدوجة : الحفاظ على هندسة الاسلام نفسه ، من جهة ، وتحقيق انطباقه الباهر على الواقع التاريخي – من جهة اخرى – اي على بعدي الزمن والمكان ..

ولن يكون ذلك الا لصالح (الانسان) ومكانته المتفردة في العالم ..

طبيعة المعضلة :

للوهلة الاولى يبدو ان السبب الرئيسي في انكماش الحركة الاجتهادية في العصور الحديثة يتمثل في قلة القادرين على الاجتهاد وانحسارهم ، وغياب الكثير من الشروط الفقهية التي مكنت الاجيال الاولى من تخريج ذلك الحشد الزاخر من المجتهدين.

الا ان التوغل قليلا في البحث عن الاسباب يقودنا الى شيء اخر .. ان المعضلة الاساسية تكمن في الشرخ المحزن الذي اخذ يفصل بحركة تصاعدية مستمرة بين الشريعة والواقع .. ليس على مستوى السلطة ، والمؤسسة فحسب ، بل على مستوى القواعد والجماهير وتفاصيل الحياة اليومية كذلك.

ان هذا الانفصال الذي نتج عن حشد من العوامل المعقدة المتشابكة المحلية والعالمية ، والتي ليس هذا المجال الحديث عنها بطبيعة الحال ، هذا الانفصال الذي كاد ان يحصر المعطيات الاسلامية في دور العبادة ونطاق الاحوال الشخصية ، او جانب منها بشكل ادق ، جعل (الاقضية) التي تتطلب حلولا يقدمها الاجتهاد لاتمثل (تحديات) امام المشرع المسلم ، ولا تدفعه الى نقطة التوتر الذي يقود الى الاستجابة ، كما كان يحدث ايام التوحد بين الشريعة والواقع .. ان الاستجابة في ظرف كهذا ستكون حركة في الفراغ .. نظريات معلقة في الهواء .. ترفا فكريا .. ربما ..

ينظر المفكر المسلم فيجد المذاهب الوضعية التي ازاحت الشريعة وحلت محلها في ادارة شؤون الواقع اليومي والتخطيط لحركته .. تهرع ازاء كل تحد لكي تكون استجابتها بمثابة تنفيذ عملي منظور ، يتحرك في ارض الواقع ، وتقدم له سائر الضمانات ، وتوفر ازاءه سائر الشروط

التي تمكنه من التحول ، بالاختزال الزمني المطلوب ، الى حركة معيشة وتنفيذ يومي ، وممارسة على الارض .. فما الذي بمقدور المجتهد المسلم ان يفعله سوى ان يقدم معطياته بصيغ افتراضات قد لا تتاح لها فرصة التحقق على الاطلاق ؟

ثم ان التحديات نفسها تجيء في حالة الانفصال هذه .. في حالة هيمنة المذهب الوضعي على مجريات الحياة .. انبثاقا عن معادلات لم تصنعها تجربة اسلامية ولا طرحت ارقامها وقيمها ممارسة ذات بعد ديني على الاطلاق .. وبمرور الوقت تتحول هذه المعادلات من صيغها البسيطة الى صيغ مركبة تطرح المزيد من التحديات التي تكون حينذاك قد انبتت عن اي جذر اسلامي ..

وتكون محاولة ايجاد حلول اجتهادية لها .. جهدا في غير ما هدف .. تكون الاستجابة لها – ولنكن صرحاء – عبثا او خداعا ..

هذا هو الذي دفع عددا من المفكرين الاسلاميين المعاصرين الى طرح واحدة من المقولات المعروفة التي لعبت دورها في سد المنافذ ازاء حركة الاجتهاد وتعليقه زمنيا ..

انه لا اجتهاد يحمل جديته وقدرته على الفعل والتحقق الا حيث يكون الاسلام هو الحكم الاول والاخير في واقع الحياة وعلى سائر المستويات .. بدء من الجمهور وانتهاء بالسلطة، واذا لم يتحقق الوفاق والتوحد بين الاسلام وبين بعدي الزمن والمكان ، فان المعطيات الاجتهادية لن تكون بحال ذات غناء.

ولنا ان نتساءل هنا : هل يتوجب علينا ان نستسلم لهذه المقولة التي قد تحمل الكثير من عناصر القوة والاقناع ، وتضع المزيد من المتاريس والعوائق في طريق الحركة الاجتهادية في العصر الراهن ، بانتظار يوم قد لا يكون قريبا ؟

أم أن علينا ان نندفع صوب الوجهة الاخرى ، والتي يقول بها حشد اخر من المفكرين المعاصرين : ان تفتح ابواب الاجتهاد على مصاريعها ، وان ينزل الاسلام الى الشارع والبيت والمؤسسة .. ان يكون حاضرا في كل مكان .. ومهما قيل من ان ماتشهده هذه الساحات انما هي معطيات وضعية تتمخض عن علاقات لم تكن للاسلام اية كلمة فيها .. فانه لابد من الاستجابة ومن طرح الحلول ورسم برامج العمل .. فقد يكون في هذا وذاك اضاءة لاولئك الذين لا يزالون يبحثون عن اماكن لمواقع اقدامهم في ليل العصر الحالك .. وقد تكون – على ابعد الافتراضات – بمثابة حلول جاهزة لليوم الذي ستغيب فيه ماساة الانفصال المحزن هذا ، ويعود التوحد من جديد بين الدين القادم من عند الله وبين شرايين الحياة واوردتها ..

انها – والحق يقال – واحدة من المعضلات الصعبة التي يتوجب على ملتقى كهذا ، يجعل من مسالة الاجتهاد شاغله واطار انشطته ، ان يجد لها الحل وان يستجيب لتحديها ..

ولكن .. الا يمكن القيام بنوع من التوفيق بين الوجهتين ، تعتمد في سياقة الحجج المقنعة لدى كل منهما ، ويتم تجاوز الحجج الضعيفة او المتطرفة ؟

ألا يمكن اللقاء عند نقطة وسط ينصب فيها الاهتمام على تنفيذ حركة اجتهادية تعنى بالقضايا الكبيرة التي لا تزال معلقة تنتظر جواب المجتهد الاسلامي وتتجاوز – مرحليا – معالجة التفاصيل والجزئيات والمسائل الصغيرة ؟

حركة يتم فيها اتفاق مسبق على سلم للاولويات وتتحقق من خلاله القناعة التامة لكافة الاطراف بضرورة البدء بالعمل وفق برنامج مرسوم ؟ ومن خلال هذا البرنامج يمكن التركيز على القضايا الملحة التي تتطلب حلولا بسبب من ارتباطها الصميم بواقع المسلمين اليومي ، او بسبب من ثقلها التاريخي المعاصر .. او غير هذا وذاك من الاسباب .. ومن خلال هذا البرنامج يمكن – كذلك – تجاوز الالحاح على ملاحقة القضايا الجزئية الصغيرة ومحاولة وضع جداول فقهية تفصيلية قد تؤول – فعلا – الى نوع من الترف الفكري المرفوض ؟

نعم .. وبكل تاكيد .. يمكن ان يتم التصالح بين الوجهتين لكي تحظى حركة الاجتهاد بقدرة اشد على المضي صوب هدفها المرسوم ..

ان رفض الاجتهاد ، او اقفال ابوابه ، كما كان يدعى في عقود مضت ، امر مرفوض لانه يؤول الى تجميد فاعلية الفكر الاسلامي وقدرته على التواصل والاستمرار والحضور العقيدي في صميم العصر .. وان الانفتاح الكلي على كل جزيئة او صغيرة ، رغم انبثاقها عن ظروف ذاتية وموضوعية لاعلاقة لها بالاسلام البتة ، ورغم التباعد المنظور بين التجربة الاسلامية والهيمنة الوضعية على المصائر والمقدرات .. أمرٌ مرفوض ايضا ..

ويبقى من مهمات هذا الملتقى ان يرسم ابعاد موقع اللقاء هذا . ويحدد شروطه ومواصفاته ، فيضع الايدي بالايدي ، ويجمع الاشعة المتفرقة .. اذ قد آن الاوان لان تلتئم ثانية كما بدات اول مرة .. وحينذاك فقط سيعرف العالم كيف سيكون الاجتهاد الاسلامي قديرا على الاحراق والاضاءة في الوقت نفسه ..

وما هذه الصفحات سوى محاولة واحدة ، او اقتراح محدود مما قد يتمخض عنه الملتقى في هذه السبيل ..

موقع المعطيات الحديثة :

ولن نمضي خطوة اخرى الى الامام قبل ان نتساءل : ما هو موقع المؤلفات الفكرية الحديثة ، ذات الطابع العام او التخصصي ، في خارطة المعطيات الاجتهادية الكائنة او التي يتوجب ان تكون ؟

الا يتوجب ان نفسح لها المجال لكي تسهم في القاء الضوء على جوانب من الطريق الصعب الطويل ؟؟ اليست هذه الاعمال – بحد ذاتها – محاولات اجتهادية في هذا الجانب – او ذاك – من فكر الاسلام عقيدة وشريعة وممارسة وحركة تاريخية ؟

انه حتى اولئك المفكرين الاسلاميين الذين رفضوا الانسياق وراء ضرورات الاستجابة للتحديات المعاصرة ذات الطابع المزيف ، والجذور غير الاسلامية ، والتراكيب والمواصفات الوضعية ، حتى اولئك الذين كانوا ولا يزالون ينادون بوقف التدفق الاجتهادي لحين تكون الارضية والمعادلات الاسلامية الصرفة كشرط اساسي للاجتهاد الجاد الملتزم ، حتى هؤلاء واولئك كتبوا الكثير عن هذا الجانب من الاسلام او ذاك ، والفوا الكثير من الكتب .. وهي في مؤشراتها وحصيلتها النهائية لاتعدو ان تكون اجتهادا من نوع ما لطرح الحلول والتصورات ومعالم الطريق لهذه المسألة او تلك من مسائل الحياة المتجددة .. حتى وان قدمت من مصادر اخرى لم يكن للاسلام دور في تكوينها ، وحتى لو تحركت على ارضية لم تتح للاسلام فيها حرية الحركة والقول وصلاحية اصدار الاحكام ..

طبعا .. فان للاجتهاد شروطه ، ولن يكون بمقدور اي كاتب او مفكر مسلم ان يكون مجتهدا الا بعد التحقق بالشروط الصارمة التي يفترضها هذا الحقل .. ولكن بعض ماقدمته هذه الاقلام ، بل – ربما – الكثير منه ، يمكن ان يرفد الحركة الاجتهادية ، وينير امامها الطريق .. ولنتذكر ، على سبيل المثال لا الحصر ، معطيات محمد اسد (ليوبولد فايس) ومالك بن نبي وسيد قطب (رحمهما الله) ومحمد قطب ومحمد الغزالي ومحمد البهي والسباعي والقرضاوي وسيد سابق ومحمد ابي زهرة والمودودي (رحمهما الله) والندوي .. وغيرهم .. لكي نعرف ان هذه المعطيات تضمنت (اطروحات) قيمة لا يمكن بحال تجاوزها ، على الاقل كاضاءات ، كاقتراحات ، كبرامج عمل ، كموشرات حركة ... ونحن نسعى للتحقق بالفعل الاجتهادي المرتجى .. واذن فلابد من ان نفسح امامها المجال لكي تلعب دورها على خارطة الاجتهاد ..

الحوافز الايجابية للاجتهاد :

يتساءل المرء : لماذا الانقطاع في حقل الاجتهاد ، والحوافز الايجابية للفعل الاجتهادي الاسلامي قائمة كما كانت .. بل – ربما – باكثر مما كانت دفعا للحركة الاجتهادية الى مواقع التمخض والصيرورة والعطاء ؟

ونستطيع ان نضع ايدينا – بالتركيز المطلوب في مناسبة كهذه – على اشد هذه الحوافز فاعلية واكثرها تاثيرا في حركية الفعل الاجتهادي ، وحتمية استمراريته الزمنية وتحققه

بالتغطية المكانية .. اي ان يصبح جزءا اصيلا من بنية الحركة التاريخية ، لا ينفصل عنها ولا يتوقف ولا يكف عن الفعل والتواصل ..

ويمكن ان نلم شتات هذه الحوافز لكي نصوغها وفق اتجاهات ثلاثة ، او نضعها في هيئة مثلث متماسك ، متساوي الخطوط ، متناظر الزوايا ، يتضمن حافزا ذاتيا واخر عقيديا وثالثا موضوعيا.

اولا : الحافز الذاتي :

فأما الحافز (الذاتي) فيتمثل بصيغة عقل حركي فعال شكله هذا الدين ، ودفع به الى العالم شعلة متوقدة لاتعرف الانطفاء او السكون ، او هكذا يجب ان يكون. ولقد تمت ، عملية التشكل هذه من خلال (نقلات) اساسية ثلاث : نقلة تصورية اعتقادية واخرى معرفية وثالثة منهجية. ولنا ان نعرض لها هنا بقدر كبير من الايجاز[٩٤]:

أ- النقلة التصورية – الاعتقادية :

ليس ثمة خطوة في تاريخ البشرية حررت العقل ، وكرمته ، ووضعته في موقعه الصحيح كهذه الخطوة : تحويل التوجه الانساني من التعدد الى الوحدة ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن عشق الحجارة والاصنام والتماثيل والاوثان الى محبة الحق الذي لاتلمسه الايدي ولا تراه العيون .. كسر للحاجز المادي باتجاه الغيب ، وتمكين للعقل من التحقق بقناعات تعلو على معطيات الحس القريب.

لقد تحدث القرآن الكريم عن هذه النقلة فقال انها خروج بالناس (من الظلمات الى النور) .. التحول الكامل من الاسود الى الابيض ، والانتقال من النقيض الى النقيض .. وقال ايضا بان الاسلام جاء لتحرير بني آدم وليضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم .. ونادى اكثر من مرة بان الدين الجديد هو (الصراط المستقيم) وما وراءه فليس سوى التيه ، والاعوجاج ، والضياع ، والهوى والضلال .. ولن يقدر عقل مهما اوتي من فطنة على ان يعمل ويبدع ويعطي وهو يتخبط بالتيه ويكبل بالاغلال.

ان العقيدة الجديدة جاءت لكي تنقل الانسان الى السعة والعدل والتوحيد ، هنالك حيث يجد العقل نفسه ، وقد اعيد تشكيله بهذه القيم ، قديرا على الحركة والفعل عبر هذا المدى الواسع الذي منحه اياه الاسلام ، غير محكوم عليه بظلم من سلطة فكرية قاهرة ترغمه على قبول ما لا

---

(٩٤) تحدثنا عن هذه المسألة بالتفصيل في كتاب (حول اعادة تشكيل العقل المسلم). الفصل الاول.

يمكن قبوله باسم الدين ، متحققا بالتقابل الباهر بين الانسان والله .. حيث يملك وحده حق التوجه ، والتعبد ، والمصير ..

ولكي ندرك البعد الشاسع لهذه النقلة التصورية في مجال العقيدة فان لنا ان نستحضر في اذهاننا ممارسات العقل العربي في الجاهلية ، وطرائق ادراكه للعالم ، وصيغ تعامله مع ما (تصوره) القوى التي تهيمن عليه وتسيره .. ونقارن هذا بالمصاف الذي احتله العقل المسلم بعد اعادة تشكيله بالاعتقاد الجديد.

لقد طرحت هذه العقيدة ، او بنيت بعبارة ادق ، على حشد من القيم التصورية كالربانية والشمولية والتوازن والثبات والتوحيد والحركية والايجابية والواقعية .. تلتئم وتتداخل وتتكامل لكي تشكل نسقا عقيديا مابلغت عشر معشاره اية عقيدة اخرى في العالم ، وضعية كانت ام دينية ، ولن تبلغه ابدا .. وكما ان هذا النسق المحكم يمثل تطابقا باهرا مع معطيات الفطرة البشرية في اصولها النقية الحرة ، فانه يمثل في الوقت نفسه ذات التطابق مع معطيات العقل المحضة وتطلعاته وآفاقه ..

ان التصور الاسلامي نسيج وحده .. وان المغزل الالهي الذي حاكه باعجاز يصعب تنفيذه على الانسان ، هو الذي عرف كيف يعيد تشكيل العقل الجديد ، ويدفعه ، في الوقت نفسه ، الى الحركة التي لا سكون بعدها ..

لقد منحه الارضية ، واعطاه الاشارة ، وسنجده ينطلق بعدها لكي يصنع المعجزات.

ب- النقلة المعرفية :

وهي عمل في صميم العقل من اجل اعادة تشكيله بالصيغة التي تمكنه من التعامل مع الكون والعالم والوجود بالحجم نفسه ، والطموح نفسه ، الذي جاء الاسلام لكي يمنحهما الانسان.

منذ الضربة الاولى في كتاب الله .. الكلمة الاولى .. نلتقي بحركة التحول المعرفي هذه:

((اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١)خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٢)اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ(٣)الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(٤)عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ))[٩٥] ..

وعبر المسيرة الطويلة ، مسيرة الاثنتين والعشرين سنة ، حيث كانت ايات القرآن تتنزل بين الحين والحين ، استمر (التاكيد) نفسه لتعميق الاتجاه ، وتعزيزه ، والتمكين للنقلة، وتحويلها الى واقع يومي معيش .. ان نداءات القرآن المنبثقة من فعل القراءة والتفكير والتعقل

---

(٩٥) سورة القلم ، (الآيات ١-٥).

والتفقه والتدبر .. الى آخره .. منبثة في نسيج كتاب الله .. لم تخفت نبرتها ابدا هناك في العصر المكي او هنا في العصر المدني ..

ليس عبثا ان تكون كلمة (اقرأ) هي الكلمة الاولى في كتاب الله .. وليس عبثا ان تتكرر مرتين في آيات ثلاث .. وليس عبثا – كذلك – ان ترد كلمة (علم) ثلاث مرات وان يشار بالحرف الى القلم : الاداة التي يتعلم بها الانسان .. وبعدها وعبر المدى الزمني لتنزل القرآن ، ينهمر السيل ويتعالى النداء المرة تلو المرة : اقرأ ، تفكر ، اعقل ، تدبر ، تفقه ، انظر، تبصر .. الى اخره .. ويجد العقل المسلم نفسه ملزما ، بمنطق الايمان نفسه ، بان يتحول ، ان يتشكل من جديد لكي يتلاءم مع التوجه (المعرفي) الذي اراده الدين الجديد.

بل ان نسيج القرآن الكريم نفسه ، ومعطياته المعجزة ، من بدئها حتى منتهاها في مجال العقيدة ، والتشريع ، والسلوك ، والحقائق (العلمية) ، تمثل نسقا من المعطيات المعرفية كانت كفيلة ، بمجرد التعامل المخلص الذكي المتبصر معها ، ان تهز عقل الانسان وان تفجر ينابيعه وطاقاته وان تخلق في تركيبه خاصية التشوف المعرفي لكل ما يحيط به من مظاهر ووقائع واشياء.

لقد كان القرآن الكريم يتعامل مع خاصة لم تكن قد حظيت من (المعرفة) الا بالقسط اليسير ، مع جيل من الناس لم يبعد – بعد – عن تقاليد الجاهلية وقيمها وطفولتها الفكرية .. لكنه قدر بقوة الايمان المعجون بالدعوة الجديدة ، على ان يعلمهم فعلا وذلك بان يعيد تشكيل عقولهم لكي تكون قديرة على استيعاب المضامين الجديدة ، مدركة للابعاد الشاسعة التي جاء هذا الدين لكي يحرك الانسان صوب افاقها الرحبة ... وما كان ذلك ليتحقق لولا اشعال التشوف المعرفي في العقل المسلم ودفعه الى البحث والتساؤل والجدل ..

لقد انتهى عهد الاستسلام والسكون والرضا باوساط الاشياء .. وجاء عهد القلق والحركة .. بحثا عن الكمال الذي يليق بمعطيات الدين الجديد ..

ان الاسلام لايهتم بالتفاصيل ، ولكنه يسعى الى تكوين (بيئة) عمل وانجاز تتضمن كافة الشروط والمواصفات التي تمكنها من العطاء .. وها هنا في حقل التوجه المعرفي تمكن الاسلام من خلق هذه البيئة .. فبعث امة من الناس ما زال عقلها يعمل ويكد ويتوهج حتى انار الطريق للبشرية يوم كانت تدلج في ليل بهيم ..

ان النهار الذي اطلعته حضارة الاسلام الاتية ، ما كان له ان يطلع لولا الشعلة التي مست عقل كل مسلم ودفعته الى التالق وهو ينطلق لتعزيز يقينه الجديد.

جـ- النقلة المنهجية :

ترتبط هذه النقلة ، بشكل ما ، بالنقلتين السابقتين وتنبثق عنهما في الوقت نفسه .. ونحن نعرف اليوم كم يلعب (المنهج) دورا خطيرا في حركة الانسان الفكرية والحضارية عموما .. ونعرف انه بدون (منهج) فليس ثمة طريق يوصل الى الاهداف مهما بذل من جهد وقدم من عطاء .. وسنرجع الى ذلك مرة اخرى ..

والنقلة المنهجية التي اتيح للعقل المسلم ان يتحقق بها ، ان يتشكل وفق مقولاتها ومعطياتها ، امتدت باتجاهات ثلاثة :

١- **السببية** : من خلال التمعن في نسيج كتاب الله نجد كيف منحت اياته البينات العقل المسلم رؤية تركيبية للكون والحياة والانسان والوجود .. تربط وهي تتأمل وتبحث وتعاين وتتفكر ، بين الاسباب والمسببات ، تسعى الى ان تضع يدها على الخيط الذي يربط بين الظواهر والاشياء في هذا الحقل او ذاك ، وفي هذه المساحة او تلك .. لقد اراد القرآن الكريم ان يجتاز بالعقل العربي مرحلة النظرة التبسيطية المسطحة ، المفككة ، التي تعاين الاشياء والظواهر كما لو كانت منقطعة معزولة منفصل بعضها عن بعض ، وهي خلال ذلك لا تملك القدرة على الجمع ، والمقارنة ، والقياس ، والتقاط عناصر الشبه وعزل عناصر التغاير .. لاتملك امكانية التركيب والاختزال والتركيز للوصول الى الدلالات النهائية للظاهرة من خلال معاينة ارتباطاتها وعلائقها بالظواهر الاخرى.

ولقد تمكن القرآن بطرقه المستمر على العقلية التبسيطية ان يعيد تشكيلها لتبعث من جديد بالصيغة التي ارادها لها : عقلية تركيبية تملك القدرة على الرؤية الاستشرافية التي تطل من فوق على حشود الظواهر بحثا عن العلائق والارتباطات ووصولا الى الحقيقة المرتجاة.

بل ان احدى طرائق القرآن المنبثة عبر سوره ومقاطعه من اقصاها الى اقصاها هي التاكيد على ضرورة اعتماد هذه الرؤية السببية للظواهر والاشياء من اجل الوصول الى معجزة الخلق ووحدانية الخالق سبحانه .. اذ بدون هذه القدرة على الربط بين الاسباب والمسببات فان العقل المؤمن لن يكون قادرا على التحقق بالقناعات الكافية ، ولن يكون بمقدور ايات الله المنبثة في الطبيعة والعالم والوجود ان تحدث فينا هزة الايمان العميق المتمخض دوما عن اكتشاف الارتباط المحتوم بين معجزة الخلق وبين الخالق.

لن يتسع المجال لاستعراض الآيات التي نادت المسلمين مرارا للتحقق بهذه الرؤية التركيبية ، والربط بين الاسباب ، فهي كثيرة جدا ، وبخاصة في العصر المكي حيث كانت ضرورات التربية العقيدية تقتضي التاكيد على تكوين عقليات كهذه .. تقارن وتركب وتربط بين الاسباب.

ومن خلال هذا التاكيد ، ذي الارتباط العميق بالموقف الايماني عموما ، اصبح العقل المسلم يرى في رؤية كهذه ضرورة من الضرورات ، بل بداهة من البداهات .. وراح يمارسها صباح مساء ، ويتمرن على الاخذ بها والعمل وفق شروطها ، حتى غدت بالنسبة له تقليدا عقليا سائدا ، وغدا الكون والعالم والطبيعة والوجود – في مقابل هذا – سلسلة من الظواهر والمعطيات يرتبط بعضها ببعض بأوثق الاسباب.

لقد انتهى عهد التفكك ، والعزلة ، والتبسيط .. ان الكون الذي هو تعبير عن ابداع الخالق ، تشده قوانين واحدة ، واسباب واحدة ، ونواميس واحدة ، تصدر عن ارادة واحدة .. ولن يتحقق فهمه ابدا ما لم ينظر اليه من خلال رؤية عقلية تعرف كيف تجمع وتلم وتقارن وتختزل وتركب .. وصولا الى الحقائق التي تبغيها ..

ان الكشف عن (السببية) والاخذ بشروطها المنهجية كسب كبير للعقل البشري واضافة قيمة مكنته من اعادة التشكل في صيغ اكثر قدرة على العطاء والابداع ..

٢– **القانونية التاريخية** : ولأول مرة في تاريخ الفكر يكشف الغطاء امام العقل البشري عن حقيقة منهجيه على درجة كبيرة من الخطورة : ان التاريخ البشري لايتحرك فوضى ، وعلى غير هدى ، وانما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والاشياء ، سواء بسواء .. وان الوقائع التاريخية لاتتخلق بالصدفة وانما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصفة او تلك وتوجهها صوب هذا المصير او ذاك ..

القانون يحكم التاريخ .. تلك هي المقولة التي لم يكن النقاب قد كشف عنها قبل نزول القرآن .. ان كتاب الله يقدم اصول (منهج) متكامل في التعامل مع التاريخ البشري والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب ، الى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر – الاجتماعية – التاريخية ، كما فعل (ابن خلدون) – فيما بعد – على سبيل المثال، فاعطى بذلك الاشارة لغيره من فلاسفة التاريخ الذين ماتلقوا اشارته تلك وبنوا عليها الا بعد انقضاء عدة قرون . وهذا يتمثل بالتاكيد المستمر في القرآن على قصص الانبياء وتواريخ الجماعات والامم السابقة ، وعلى وجود (سنن) و (نواميس) تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وانتقالها من حال الى حال.

ان المنهج الجديد الذي يطرحه القرآن الكريم يؤكد ، اكثر من مرة على ان (التاريخ) لا يكتسب اهميته الايجابية الا بان يتخذ ميدانا للدراسة والاختبار تستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم اية برمجة للحاضر والمستقبل الا على هداها .. ان القرآن يطرح على العقل البشري – اذن – ولاول مرة مسالة (السنن) و (النواميس) التي تسير حركة التاريخ وفق منعطفها الذي لا يخطىء ، وعبر مسالكها (المقننة) التي ليس الى الخروج عليها سبيل لانها

منبثقة من صميم التركيب البشري ومعطياته المحورية الثابتة فطرة وغرائز واخلاقا وفكرا وعواطف ودوافع ووجدانا ، ومن قلب العلاقات والوشائج والارتباطات الظاهرة والباطنة في العالم الذي يتحرك فيه الانسان ، والتي تتجاوز في اتساعها وشموليتها نسبيات البيئة والجغرافية او الوضع الاقتصادي لكي تتسع للفعل التاريخي نفسه ، الفعل القائم على القيم الثابتة الدائمة في كيان الانسان والتي تنبثق عنها المواقف التاريخية سلبا وايجابا. ومن ثم فان حكمها على هذه (الحركة) يجيء منطقيا تماما لانه اشبه بالجزاء الذي هو من جنس (العمل) ومن خامه الاصيل ، وعادلا تماما لانه يكافيء الانسان ، فردا وجماعة ، بما يوازي طبيعة الدور التاريخي الذي مارسوه ، حتى لكأن القرآن يلفت انظارنا الى اننا نستطيع ان نرتب على مجموعة معينة من الوقائع التاريخية ، سلفا ، نتائجها التي ترتبط ارتباطا صميما بمقدماتها ، اعتمادا على استمرارية السنة التاريخية ودوامها.

والقرآن الكريم لا يؤكد ثبات هذه السنن وديمومتها فحسب ، ولكنه يحولها في الوقت نفسه الى دافع حركي يفرض على الجماعة المؤمنة ان تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة الى الدمار ، وان تحسن التعامل مع قوى الكون والطبيعة ، مستمدة التعاليم والقيم من حركة التاريخ نفسه.

٣- منهج البحث الحسي – التجريبي : يمكن القول بانه لا الكشف عن السببية ولا القانونية التاريخية يعدل الكسب المعرفي القيم الذي احرزه العقل المسلم خصوصا ، والعقل البشري عموما ، والذي تمثل بمنهج البحث الحسي – التجريبي الذي كشف النقاب عنه ، ونظمه، واكده ، ودعا اليه : كتاب الله ..

لقد دعا القرآن الناس الى التبصر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية عن طريق (النظر الحسي) الى ما حولهم ، ابتداء من مواقع اقدامهم وانتهاء بافاق النفس والكون ، واعطى للحواس مسؤوليتها الكبيرة عن كل خطوة يخطوها الانسان المسلم في مجال البحث والنظر والتامل والمعرفة والتجريب ... وناداه ان يمعن النظر الى ماحوله .. الى خلقه .. الى طعامه وشرابه .. الى الملكوت من حوله .. الى التاريخ وحركة الانسان في الارض .. الى خلائق الله واياته المنبثة في كل مكان .. الى النواميس الاجتماعية .. الى الطبيعة والعالم .. الى الحياة الاولى كيف بدأت ، وكيف نمت وارتقت .. ودعاه ان يحرك (سمعه) باتجاه الاصوات لكي يعرف ويميز ، فيأخذ او يرفض ، فمن الاختيار البصير ينبعث الايمان ..

وانتقل القرآن خطوة اخرى فدعا الناس الى تحريك (بصائرهم) تلك التي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية ، لا حصر لها ، ثم تتحمل مسؤوليتها في تنسيق هذه المدركات

وتمحيصها وموازنتها وفرزها من اجل الوصول الى الحق الذي تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة ..

وتتوالى الآيات ، تؤكد المرة تلو المرة ، على ان السمع والبصر والفؤاد جميعا هي التي تعطي الحياة البشرية قيمتها وتفردها ، وان الانسان بتحريكه هذه القوى والطاقات ، بفتحه هذه النوافذ على مصاريعها ، سيتبوأ مركزه المسؤول خليفة في الارض ، وانه بتجميد هذه الطاقات وقفل نوافذها يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا التي ما ارادها له الله يوم منحه نعمة السمع والبصر والفؤاد .. منزلة البهائم والانعام.

وحشد آخر من الآيات ، جاوز الخمسين ، حث على تحريك العقل ، المفتاح الذي منحه الله بني آدم والذي يتوجب اعتماده لكي تمضي الكشوف والمعطيات الى غايتها . وايات اخرى نادت بوجوب (التفكر) و(التفقه) وهي خطوة عقلية ابعد مدى من التفكير ، تجعل الانسان اكثر وعيا لما يحيط به ، واعمق ادراكا لابعاد وجوده وعلائقه في الكون ، كما تجعله متفتح البصيرة دوما مستعدا للحوار المسؤول ازاء كل ما يعرض له على صفحة العالم والوجود.

وأكد القرآن على الاسلوب الذي يعتمد (البرهان) و(الحجة) و(الجدال الحسن) للوصول الى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والمقارنة والموازنة والتمحيص ، ولا يسعنا هنا استعراض جل ما ورد من آيات في هذا المجال ، او حتى الاشارة اليه ، ويكفي ان نشير الى ان كلمة (علم) ، بتصريفاتها المختلفة ، وردت في عدد من الايات جاوز السبعمائة والخمسين.

ومن ثم فلا يتصورنّ احد ان الاسلام ما جاء الا لكي يؤكد في موقفه من العمل الحضاري على الجوانب الاخلاقية والروحية فحسب .. اننا بازاء ايات عديدة تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة وتدفعها الى ان تبذل جهدها من اجل التنقيب عن السنن والنواميس في اعماق التربة وفي صميم العلاقات المادية بين الجزيئات والذرات .. اننا بازاء حركة حضارية شاملة تربط بين مسالة الايمان وبين الابداع والكشف ، بين التلقي عن الله والتوغل قدما في مسالك الطبيعة واغاميضها .. بين تحقيق مستوى روحي عال للانسان على الارض وبين تسخير طاقات العلم لتحقيق نفس الدرجة من التقدم على المستوى المادي .. ولم يفصل الاسلام يوما بين هذا وذاك.

والنتيجة المحتومة التي تمخضت عن هذه التحولات الحاسمة عقيديا ومعرفيا ومنهجيا، تشكل عقل جديد قدير على الاستيعاب والفعل والاضافة والابداع ..

وليس (الاجتهاد) سوى تعبير حركي متواصل عن هذا التشكل المبدع .. او هذا ما يتوجب ان يكون ..

ثانيا : الحافز العقيدي :

وأما الحافز العقيدي فيتمثل بالهندسة المعجزة الفذة للاسلام نفسه حيث يتحقق التوازن بين كافة الاطراف ، ويتم التوحد بين سائر الثنائيات .. وحيث تكون (الوسطية) التي ميزت هذا الدين ، ليست موقعا جغرافيا ، ولا حيلة مذهبية لتجاوز الصراع الحاد بين النقائض ..

وانما فعلا حركيا دائما للحضور في قلب العالم .. في صميم التاريخ ، وجهادا مستمرا من اجل تجاوز الصراعات والنقائض والتحقق بالتوحد والوفاق والانسجام .. انها موقف عقائدي ، واستراتيجية عمل ورؤية نافذة لموقع الانسان في الكون والعالم .. القدرة الدائمة على التحقق بالتوازن وعدم الجنوح ذات اليمين او الشمال .. ومن خلال هذه القدرة يتحقق مفهوم الشهادة على الناس ، لأنها تطل عليهم من موقع الاشراف المتوازن الذي لا يميل ولا يجور .. تشرف عليهم وهي تتحرك على الصراط .. وهي تمسك بالميزان الحق الذي تزن به كل صغيرة وكبيرة في هذا العالم فتميز بين الطيب والخبيث ، وتفرز الذهب من التراب ، وتبين الحق من الباطل.

ورغم ان هذا (التوازن) قد تعرض ، على المستوى التاريخي ، للتأرجح بين الحين والحين ، الا انه في اطار التجربة الاسلامية يظل ، من بين سائر التجارب الاخرى في العالم، اكثرها وضوحا ، والتزاما ، وتألقاً.

إنه الجدل الفعال الذي تتجاوز فيه الثنائيات فلا يمحو بعضها بعضا ولا يحتوي احدها الاخر ، ولا يذوب ، خلالها ، الواحد بالاخر .. بل تظل – احيانا – على تقابلها الفعال وحوارها .. فمن خلال ذلك تواصل الحركة العقيدية قدرتها على الفعل والعطاء .. وتكون الديمومة التي ترفض التوقف والسكون.

ان الصلابة الغرانيتية لعقيدة الاسلام – اذا صح التعبير – تقابلها مرونة تتغير عبرها الخطوط والمساحات من عصر الى عصر ومن بيئة لأخرى. وان (التشخصن) الذي يمنح الاسلام ملامحه الابدية الدائمة يقابله انفتاح غير متردد ولا متشنج ازاء كافة العقائد والمذاهب والحضارات .. وان (الوحدة) التي تمنح الاطروحات الاسلامية جملتها العصبية الواحدة ، ودماءها المتفردة ، وبصمات اصابعها المتميزة ، تتضمن في الداخل ، عبر شبكة التفاصيل والجزئيات تنوعا فذا وتغايرا مستمر الحركة ، لكنه يظل في اطار الوحدة الشاملة لانه يستمد دمه من شرايينها وينفعل بجملتها العصبية ، ويتلقى الامر من دماغها المتفرد ..

ان تغاير الزمن ، او المكان ، قد يحدث تنوعا وتغايرا ، بل انه لمن المحتوم ان يحدث هذا وذاك .. ولكن اي تنوع واي تغاير هذا الذي يتمخض باستمرار عبر الزمن والمكان ؟ انها الاجنة المتباينة التي تبعث بها الحياة الاسلامية مختلفة متباينة .. لكن الرحم الذي يدفع بها واحد ..

وثنائيات كثيرة اخرى قد تتصلب في مذاهب واديان اخرى ، وقد يطغى بعضها على بعض ، ويخنق احدها الاخر .. وقد يتحول الحوار بينها الى صراع دموي بالخناجر والسكاكين .. ولكنها في اطار الاسلام توظف دونما قسر او تشنج او افتعال لخدمة الانسان في العالم ، والتحقق بشروط خلافته في الارض ، وتمنح الفعل الاجتهادي ديناميته فلا يتعثر .. او يحرن .. او يغيب ..

الظاهر والباطن .. الحضور والغياب .. المادة والروح .. القدر والاختيار .. الضرورة والجمال .. الطبيعة وما وراء الطبيعة .. التراب والحركة .. الاخلاقية والمنفعية .. الفردية والجماعية .. العدل والحرية .. الوحي والتجريب .. الدنيا والاخرة .. والفناء والخلود ..

انه (التوازن) مرة اخرى .. التوازن في كافة الاتجاهات وعلى كافة الجبهات .. انه باطرافه المتقابلة وثنائياته المتوافقة .. بمثابة السدى واللحمة في النسيج المتوحد .. هذا التوازن الذي يتصادى هنا وهناك .. في النظرية والتطبيق على السواء .. انه في صميم فكر الاسلام وفي قلب صيرورته التاريخية ..

ثالثا : الحافز الموضوعي :

وأما الحافز الموضوعي فيتمثل بما يطرحه العصر الراهن من تحديات متزايدة تتطلب الاستجابات المستمرة .. وما يتضمنه من تراكم في الخبرة – على مستوى المنهج والموضوع – تتوجب الافادة من معطياته لرفد حركة الاجتهاد .. اي حركة امتداد الرؤية الاسلامية وحضورها في قلب العالم.

قد يبدو نوعا من المبالغة القول بان مرور الزمن هو ، بشكل من الاشكال ، لصالح الاسلام ، وان الصيرورة الحضارية الشاملة يمكن ان تقدم ادوات عمل لخدمة الفكر الاسلامي .. ولكن الامر كذلك – يقينا – بمجرد ان نتحرك في الوقت المناسب لتقديم هذه الاستجابة او تلك ، وللإفادة من هذه الخبرة او تلك.

وقد نجد في آيتين كريمتين من كتاب الله مفتاحا لهذا المغزى الزمني ، فاما اولاهما فهي تلك التي تقول : **{ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ }** واما ثانيتهما فهي تلك التي تقول : **{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }.**

فاذا ما نفذنا هذا المنطوق على مايجري في العالم من تمخض زمني يطرح سيلا متزايدا من التحديات التي يمكن ان يتالق الاسلام على ضوئها كما تالق اول مرة يوم ان خرج لكي يقابل العالم .. او بعبارة ادق : يقابل حركة الزمن في العالم .. عرفنا مدى صدقه واعجازه ..

ومـع هـذا السـيل المتزايـد تـراكم فـي الخبـرة تتسـع حلقاتـه يومـا بعـد يـوم فـي المنـاهج والمعطيات الموضوعية .. تراكم يمكن ان يمنحنا انارة اشد ، واستبصارا اعمق ، ويمكن ان يهبنا ادوات عمل فاعلة ، ومبرمجة ، تختزل بها حيثيات الزمن والمكان لتقديم النتائج الادق والاسرع والاكثر عددا ..

واذا كان بعضنا يرفض الاستجابة لهذا التحدي او ذاك لانه ينبثق عن ارضية لاعلاقة لها بما هو اسلامي صميم ، ويؤول الى معطيات لاعلاقة لها بكل ما هو اسلامي صميم ، فان احدا لا يستطيع القول بضرورة التهرب من مناهج البحث الحديث ، كادوات عمل ، او برامج مساعدة ، للوصول الى الحقائق ، بحجة انها قادمة من اناس لاعلاقة لهم بالاسلام من قريب او بعيد ..

ان (الكمبيوتر) ابتكار غربي ، اداة قدمها للناس عقل وضعي .. ولكنها في نهاية الامر اداة محايدة ، يمكن ان توظف لخدمة كل عقيدة او مذهب او دين .. ويمكن ان تعتمد لطرح المزيد من المعطيات وبلورتها وايضاحها على مستوى كافة العقائد والافكار.

ونحن نتحدث عن حوافز الفعل الاجتهادي ، لن يستطيع احد ان ينكر اهمية هذه الاداة لهذا الفعل ، وتمكينها اياه من اعتماد معلومات مصنفة تصنيفا دقيقا للوصول الى نتائج اقرب الى الحقيقة ، ومعطيات الصق بالمطلوب ..

ان هذه الاداة تعتمد منذ سنين في مجالات علوم الحديث المختلفة ذات (المعلومات) الكثيفة المتشابكة .. وربما تكون قد اعتمدت في مجالات علوم القرآن وغيرها من العلوم الدينية او الانسانية .. افلا يمكن القول بان (الكمبيوتر) كرمز مكثف لمعطيات الصيرورة الحضارية ، يعطينا مثلا على ما يمنحنا اياه تراكم الخبرة من اعانات وحوافز لتوسيع نطاق الحركة الاجتهادية في العالم المعاصر ؟

ومع تزايد التحديات وتراكم الخبرة هنالك مايرتبط بهما ويحفز هو الاخر ، على تحديد موقف اجتهادي في مواجهة العالم.

انها تجربة الحياة المترعة بالمرارات والالام والتي بينت للانسان الغربي ومن ينحو منحاه ، كيف آلت الى الفشل والخيبة سائر التجارب التي قادتها ورسمتها مذاهب وضعية او اديان محرفة ما انزل الله بها من سلطان.

انه عذاب ((يومي)) لايمكن ان تغطي عليه انجازات الحضارة الغربية ، او المدنية الغربية بعبارة ادق ، لان عذاب الانسان المعاصر لا يمكن ان يعالج بالسيارة او البراد او التلفزيون .. قد تعينه هذه وقد تنسيه ، ولكن الازمة تظل مادام المريض يتنفس ذات الهواء المسموم المترع بالجراثيم والدخان.

واذا كان رجل الشارع لا يستطيع ان يعبر بشكل واضح دقيق عن هذا العذاب فان الكثيرين من مفكري الغرب ، ادبائه وفنانيه ، ما كانت معطياتهم سوى تعبير مؤثر عن هذا العذاب ..

وبمرور الوقت تتزايد العذابات وتتعقد وتتشابك ، ويزداد الاحساس بالالم والتعاسة ، وتزداد معهما الاصوات التي تنادي بلسان الفكر حينا ، وبلسان الفن والادب ، احيانا ، بضرورة البحث عن البديل والتحقق به ..

ها هنا .. يتوجب ان يتقدم المجتهد المسلم لكي يقول كلمته ازاء كل الم .. ويمنح جوابه لكل مريض او مأزوم ..

وها هنا – مرة اخرى – يبدو مرور الزمن اداة مساعدة للتحقق بفاعلية اكبر للفكر الاسلامي وبحضور اشد كثافة لحركته الاجتهادية ..

المنهج والافاق :

اولا : اهمية المنهج :

إن قضية (المنهج) يتوجب ان تاخذ مكانة متقدمة في سلم الاولويات بالنسبة للفكر الاسلامي المعاصر عموما اذا ماريد لهذا الفكر ان يتجاوز (السلبيات) التي يعاني منها والتي اخذت تتراكم بمرور الوقت فتزيد من قيوده واغلاله وتعتم عليه الافق فلا يكاد – احيانا – يرى الطريق التي يتوجب عليه ان يقطعها وصولا الى الاهداف.

ان هذا (الكم) المتضخم من العطاء الفكري لن يكون بحال اضافة ذات غناء لمكتبتنا الاسلامية وحياتنا المعاصرة ، ما دام في كثير من مساحاته لا يلتزم رؤية منهجية واضحة الابعاد ، محددة المفردات ، بينة الملامح مثبتة الاهداف.

ان القوم في عالم الغرب يغزوننا اليوم باكثر من سلاح .. وان (المنهج) الذي يستهدي بمقولاته ونظمه معظم المفكرين افرادا ومؤسسات ، لهو واحد من اشد هذه الاسلحة مضاء في تمكينهم من التفوق علينا وفرض فكرهم في ساحاتنا الثقافية كافة.

هم منهجيون في كل فعل او ممارسة ، بغض النظر عن مدى سلامة هذا المنهج وصدق مفرداته وصواب اهدافه التي يتوخاها .. منهجيون وهم يتحاورون ويتناقشون ، منهجيون وهم يكتبون ويبحثون ويؤلفون .. منهجيون وهم يدرسون ويقراون ويطالعون .. ان (المنهج) بالنسبة للمثقف الغربي يعني ضرورة من الضرورات الفكرية ، بل تقليدا من التقاليد وبداهة من البداهات .. وبدونه لن تكون الحركة الفكرية باكثر من فوضى لا يضبطها نظام .. وتخبط لا يستهدي بهدف ، ومسيرة عمياء لاتملك معالم الطريق ..

ونحن – الى عهد قريب – على النقيض من هذا في الكثير من افعالنا وممارساتنا .. بلا منهج في حوارنا ومناقشاتنا .. بلا منهج في كتاباتنا وابحاثنا وتاليفنا .. بلا منهج في دراساتنا وقراءاتنا ومطالعاتنا.

لكأن الرؤية المنهجية التي منحنا اياها كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم)، قد غابت علينا ، وافلتت مقولاتها من بين ايدينا ، وتلقفها القوم ، هناك ، كما تلقفوا الكثير من معطياتنا الثقافية فذكروها ونسيناها ، والتزموا بها وتركناها ، وتحققوا بحضورها الدائم وغبنا نحن عنها او غابت هي عنا فكان هذا الذي كان ..

ولكأن (الخطط الخمسية) التي قبسناها عنهم في انشطتنا الاقتصادية هي الخطط الوحيدة التي يمكن ان تؤخذ عنهم من اجل وضع مناهج عمل لممارساتنا الاقتصادية تتضمن المفردات ، ووحدات الزمن المطوبة ، والاهداف ، في سياق استراتيجية بعيدة المدى قد تتحقق بعد عشر من الخطط الخمسية او عشرين.

أليس ثمة مجالات اخرى ، غير الاقتصاد ، او مع الاقتصاد ، يتوجب ان يبرمج لها ، وان توضع لها الخطط والمناهج الزمنية المحددة ، الصارمة ، لكي تصب على هدى وبينة في بحر الاهداف الاستراتيجية لمسارنا الثقافي ؟

ان اعتماد المنهج في انشطتنا الفكرية ليس اقتباسا عن حضارة الغرب بقدر ما هو رجوع الى الجذور والتقاليد الاصيلة التي صنعناها نحن على هدى كتاب الله وسنة رسوله (عليه السلام) ومعطيات ابناء هذا الدين زمن تالقهم الحضاري.

وان حيثيات الصراع الراهن مع الحضارة الغربية تتطلب فيما تتطلب ان يكون لنا منهج عمل فكري يمكننا ، من خلال النظم الصارمة التي يلزمنا بها ، من الاخذ بتلابيب القدرة على الفاعلية والتحقق بالريادة والكشف والابتكار والاضافة والاغناء.

ان نكون – باختصار – انداداً للفكر الغربي ، قديرين على ان ندخل معه في حوار يومي .. وان نتفوق عليه ..

ان العقيدة التي نملكها ، والمضامين الثقافية التي تخلقت عبر تاريخنا الطويل في مناخ هذه العقيدة .. تعلو ، بمسافات لا يمكن قياسها ، على عقائدهم وفلسفاتهم ورؤاهم ومضامينهم الثقافية .. هم يقولون هذا مرارا ويؤكدونه تكرارا قبل ان نقوله نحن ونؤكده ، وبعده ..

والذي يعوزنا هو المنهج ، هو طرائق العمل الاستراتيجي المبرمج المنظم المرسوم .. وحينذاك فقط يمكن ان نطمح ليس الى تأصيل ذاتنا الثقافية وتحصينها ضد عوامل التفكك والغياب والدمار ، فحسب ، بل الى التفوق على ثقافة الخصم واحتوائها ، باطراح دمها الازرق الفاسد والتمثل بدمها القاني النظيف ..

ان المنهج يعني في نهاية التحليل : حشد الطاقات وتجميعها والتنسيق بين معطياتها لكي تصب في الهدف الواحد فتكون اغنى فاعلية واكثر قدرة على التجدد والابداع والعطاء ..

لقد اكد القرآن الكريم والحديث الشريف هذا المعنى اكثر من مرة .. وحذرنا نبينا عليه الصلاة والسلام من ان الذئب لاياكل من الغنم الا الشياه القاصية ..

ان العدسة (المفرقة) تبعثر حزمة الضوء فتفقد قدرتها على الاحراق .. اما العدسة (اللامة) فتعرف كيف تجمع الخيوط لكي تمضي بها الى البؤرة التي تحرق وتضيء ..

ان المنهج هو هذه العدسة اللامة ، وبدونه لن يكون بمقدور مئات الكتب التي تطرحها مطابعنا سنة بعد سنة ان تمنحنا (النار) التي نحن بامس الحاجة اليها في صراعنا الراهن.

ثانيا : اقتراحات بصدد العمل :

آن الاوان – اذن – لتجاوز الارتجال في العمل واعتماد منهج مرسوم بدلا من ذلك ، في عصر غدا فيه المنهج ، او البرمجة ، بداهة من البداهات في اية ممارسة جادة او نشاط ثقافي او مدني هادف.

ان الطاقات الفردية الموزعة يمكن ان تمنحنا نتائج معينة على هذا المستوى او ذاك ، ولكنها نتائج ذات فاعلية محدودة يصعب عليها تحقيق تغطية شاملة للموضوع الذي تعالجه او المعضلة التي تسعى لحلها .. واننا بامس الحاجة في ميدان الفعل الاجتهادي الى انشطة جماعية واعمال مبرمجة وخطوات مرسومة مدروسة من أجل تجميع الطاقات الفكرية الاسلامية للتحقق بفاعلية اكبر ولتجاوز الازدواجية والارتطام والتبذير والتناقض والتفتت.

ثمة مقترحات ووجهات نظر عديدة قد تخطر على البال بصدد وسائل تنفيذ انشطة اجتهادية جماعية على هذا المستوى .. وستكتفي هذه الورقة بالاشارة – فحسب – الى بعض هذه المقترحات .. فعسى ان يكون الاخوة المشاركون قد طرحوا الكثير غيرها ، ومن زوايا نظر متعددة ، الامر الذي يزيد صيغ التنفيذ تنوعا وشمولا واستكمالا للاسباب ، سيما بعد تقليبها على وجوهها مناقشة وحوارا ..

اولا : التخطيط لفهرسة موسوعية دقيقة وشاملة لمعطياتنا الفقهية (التاريخية) حسب الحقول والابواب والمواضيع ، يعهد بوضعها وتنفيذها – على مراحل زمنية مرسومة – لعدد من الحلقات او لجان العمل التي يتميز اعضاؤها بكونهم على قدر كبير من التضلع في حقول اختصاصاتهم، فضلا عما يجب ان يتميزوا به من امانة واخلاص والتزام.

ان محاولات من هذا النوع سبق وان طرحت للعمل ، فقطع بعضها شيئا من الطريق، ثم ما لبث ان توقف لهذا السبب او ذاك ، وعقم بعضها الاخر عن ان يلد شيئا .. اما بعضها الثالث فلا يزال يواصل الطريق ولكن ليس بالصيغة الطموحة التي تتوخى الشمول الموضوعي ، وتسعى في الوقت نفسه الى استقطاب كافة الطاقات الفقهية على مدى عالم الاسلام من اقصاه الى اقصاه .. ولربما يكون بمقدور (الملتقى) ان يتبنى – ولو بصورة مبدئية – خطوة كهذه جديرة بالاهتمام ، من اجل وضع الخطوات الاولى على طريق الفعل الاجتهادي الصحيح المبرمج ، المرسوم ، بعد قرون من الفوضى والارتجال .. والضياع .. ولن يعدم مشروع كهذا مصادر طيبة لادارته وتمويله في عصر الفائض المالي العربي والاسلامي الذي توجب ان يبحث عن مشاريع كبيرة لانفاقه بما يخدم تطلعات هذه الامة ووجودها المتخصص المتميز بين الامم. ان هذه الفهرسة ستضع المفاتيح السهلة في ايدي الباحثين والمجتهدين لكي يعرفوا مواقع خطواتهم وهم يتجولون عبر معطيات فقه مزدحم كثيف ولكي يحصلوا على الاطروحات التي تمكنهم من العمل بالسهولة والسرعة التي تمنحهم اياها وسائل التركيز والاختزال والبرمجة الحديثة.

واستمرارا لهذا السياق لابد من تنفيذ محاولة لتركيز واستخلاص الدلالات والمعلومات الاساسية في تلك الغابة المزدحمة من المعطيات ، من اجل تهيئتها للخزن وتحويلها الى رموز ومعادلات جاهزة للتعامل مع احدث الاجهزة العلمية التي تستهدف الاختزال والتنسيق في الانشطة العلمية كافة.

ثانيا : تحقيق الخطوات نفسها بصدد المعطيات الفكرية الاسلامية الحديثة والمعاصرة بعامة ، والتي سبق وان قلنا انها تتضمن اطروحات فقهية قيمة ، او اسهامات جادة في حقل الاجتهاد ، وقد تتضمن – كذلك – وجهات نظر واقتراحات ذات قيمة بصدد موضوع الاجتهاد. هذا الى ان معطيات كهذه تكسب قيمتها – ابتداء – من كونها محاولات للتعامل مع (العصر) ولتحقيق حضور اسلامي فعال في نسيجه .. ولتمكين الاسلاميين في كل مكان من التحاور المفتوح مع كل ما يطرحه العصر من قيم وعلاقات ومؤسسات حضارية بعامة.

وبهذا يمكن اعتبار الكثير مما كتب في هذه الدائرة اسهاما مباشرا في حركة الاجتهاد يستهدف تقديم الاستجابات المتتالية للتحديات التي تطرحها صيرورة القرن العشرين الحضارية، بل ان بعض هذه المؤلفات ، او بعض فصولها على الاقل ، يمكن ان تعتبر ((اجتهادا)) مخلصا لتقديم الجواب ، رغم انه قد تعوزه بعض الشروط احيانا ، ولكنه في خطوطه العريضة ، وربما في تفاصيله ، يضيف رصيدا طيبا الى هذا الحقل.

ثالثا : منذ عقود عديدة وبعض المفكرين الاسلاميين يطرحون معضلة الانقطاع الاجتهادي لفترات زمنية متطاولة ، كحاجز يقف امام استعادة الحركة الاجتهادية قدرتها على الفعل والتعصير والاستمرار .. فلو ان الاجتهاد الاسلامي لم يتوقف البتة واستمر على فاعليته في مجابهة تطورات الحياة المستجدة ، لكان الحال غير الحال ، ولكانت الدعوة الى التحقق بحضور اجتهادي فعال في قرننا هذا امرا ممكنا بل ميسورا.

وليس هذا مجال البحث في اسباب التوقف المحزن ذاك .. ربما يكون غياب الحكم الاسلامي بصيغه الحركية الحية .. ربما يكون الانكسارات الحضارية لعالم الاسلام .. ربما يكون غياب العقل الاسلامي الفعال ، وانكماشه ، وتيبسه .. ربما يكون الاستنزاف الذي تعرض له عالم الاسلام عبر غزوتي الصليبيين والتتار المدمرتين .. وما اعقبهما من استنزاف استعماري اشد هؤلاء ودمارا .. ربما يكون لهذه الاسباب مجتمعة الدور الحاسم في هذا المصير الذي آلت اليه حركة الاجتهاد .. والمهم هو كيف يتم تجاوز (الفراغ) وتحقيق التواصل البنائي المطلوب بين المعطيات الاجتهادية فيما قبل الانتكاس ، وبينها في قلب القرن العشرين ؟

ان المرء ليتساءل ها هنا : هل من المحتوم ملء هذا الفراغ لكي تكون انطلاقتنا الاجتهادية الجديدة متحققة بشروط التواصل المطلوب ؟ الا يمكن ان يعتبر المجتهد المعاصر نفسه (حرا) في ان يبدأ من جديد لمجابهة تحديات جديدة ، كما بدأ سلفه من جديد في مجابهة التحديات الجديدة ؟

صحيح ان محاولة ملء الفراغ ، وتحقيق الاستمرارية الاجتهادية ، ستمكن المجتهد المعاصر من ان يبني معطياته على اسس صحيحة ، وان يملك اجتهاده شخصيته المتميزة المتواصلة التي لاتقطع فيها ولا كسور ولا غياب .. ولكن هذا الامر – ربما – ليس قدرا مقدورا .. انما قدر العقل الاسلامي المعاصر ان يجابه التحديات وان يتفوق عليها .. وان يحقق استجابات ناجحة لكل الاقضية التي تعترضه .. ان يساعد على تنفيذ الحضور الاسلامي في قلب العالم الراهن .. انه بهذا يقتدي باسلافه الذين خرجوا يوما الى العالم لكي يجابهوا تحدياته ومشاكله ولكي يجعلوا عقيدتهم حاضرة في سدى نسيجه ولحمته ، واضعة بصماتها على كل ممارسة وفاعلية في مشارق عالم الاسلام ومغاربه.

ومع ذلك فقد يكون بالامكان تجاوز المعضلة وتنفيذ الاقتراح انف الذكر بملء الفجوة ، وتحقيق التواصل بين الحركتين من خلال مبادىء وصيغ وشروط يتم الاتفاق عليها سلفا لكي تكون جانبا من فاعلية الجهد الجماعي المرتجى لدفع حركة الاجتهاد وتوسيع افاقها ، واستعادة قدرتها على الحضور.

رابعا : تصميم خارطة معمارية معاصرة للتصور الفقهي الاجتهادي وافاقه تستمد عناصرها من :

أ- المعطيات المتأنية التي ستتمخض عنها الخطوات الثلاث السابقة.

ب- طبيعة التحديات المعاصرة على المستويات كافة من خلال سلم اولويات يتقدم فيه الاهم على المهم على الاقل اهمية وتتولى امره لجان عمل دائمة ، او مؤسسات تكون مهمتها – كذلك – ملاحقة المستجدات وادراجها وفق صيغها النمطية على الخارطة التي يتوجب ان تظل مفتوحة لتقبل المتابعات الجديدة.

جـ- تحقيق قدر من الوفاق المرن بين النظرية والتطبيق ، اي بين تقديم حلول جاهزة للعمل على ارضية الواقع ، واخرى تنتظر التجربة على هذه الارضية من اجل تجاوز مقولة ((لا اجتهاد الا في مواطن التنفيذ)).

د- تجاوز التشنج على الجزئيات والتفاصيل الدقيقة ، وجعل الاهتمام ينصب على الكليات ذات الطابع النمطي الذي يمكن ان يقاس عليه ما يحتويه او يشابهه من تفاصيل وجزئيات.

هـ- ولا باس من الاتفاق مبدئيا على طرح برنامج عمل مرحلي لتنفيذ الاجتهاد على عدد محدد من المسائل الملحة التي تقتضي حلولا ، من مثل طرح تصور اجتهادي لما يتوجب ان يكون عليه المجتمع المسلم في نهاية القرن العشرين ، وذلك بتحديد مدروس لكافة انماط العلاقات الاجتماعية ، بما في ذلك الموقف من الانشطة والمؤسسات المالية والاقتصادية والتي تزداد تعقيدا يوما بعد يوم .. إلى اخره .. مما يمكن ان يتم الاتفاق على اولويته في العمل.

خامسا : ولابد ، قبل هذا كله ، من القيام بدراسة متأنية للجغرافيا الفكرية لعالم الاسلام ، من اجل حصر كافة الطاقات الاسلامية ، وتوزيع المهمات عليها وفق توجهاتها واختصاصاتها ونقاط تألقها وعطائها .. ومن اجل فتح باب الحوار بين هذه الطاقات المتباينة للتحقق باكبر قدر من لوضوح في الرؤية ، وتجاوز خطيئة النظرة احادية الجانب ، وجعل كافة المذاهب الاجتهادية تدلي بدلوها في مجرى العطاء المرتجى.

ان هذه الخطوة الضرورية ، لاتضمن شروطا اكثر توفيقا للعمل الاجتهادي فحسب ، ولكنها ستسهم في تعزيز الوحدة بين مفكري عالم الاسلام من خلال جدل دائم فعال ، واسهامات اجتهادية متواصلة.

وهو – بحق – هدف عزيز ، في عصر التفكك والتباعد والعزلة ، حيث تعتمد الاسلاك الشائكة لكي تقطع ما بين المفكر والمفكر وتعزل الانسان عن الانسان.

ولئن لم يفعل (الملتقى السابع عشر) أزاء هذا كله ، باكثر من فتح الابواب الموصدة، ووضع الخطوات الاولى على الطريق الصحيح .. فكفى به نجاحا وتوفيقا ..